

## الفصل الخامس

### معرفة المسلمين عند الغرب

في عام ١٦٥٥ قام الجغرافي العثماني الرياضي "كاتب جلبي" بكتابة كتيب بعنوان "المرشد عن الأمور المحيرة في التاريخ اليوناني والروماني والمسيحي" <sup>(١)</sup> وفيه يشرح الأسباب التي دفعته لكتابة هذا الكتيب في مقدمته . لقد صار عدد المسيحيين كبيراً ، ولم يعودوا مقتصرين على ذلك الجزء من العالم المسكون ، ذلك الجزء الذي كانوا يعيشون فيه من قبل . وعلى الرغم من أن طوائف المسيحيين كانت طائفة واحدة ، فقد انتشروا وأصبح عددهم كبيراً جداً حتى أنهم ذهبوا إلى مناطق عديدة من العالم . ولما عبروا بسفنهم عبر البحار الشرقية والغربية . . أصبحوا أسياداً لعدد من الدول .

ولم يكن في مقدورهم التعدي على الإمبراطورية العثمانية ، ولكنهم كسبوا انتصارات في العالم الجديد ، وانتشروا في مواني الهند التي سيطروا عليها . وكذلك . . فقد اقتربوا من المناطق العثمانية . وفي مواجهة هذا الخطر المتفاقم . . فإن كل هذه التواريخ الإسلامية التي تقدم حول هذه الشعوب كانت واضحة الأكاذيب وكانت أساطير ملفقة . ولما كان الأمر كذلك . . فقد كان من الضروري التزود بمزيد من المعرفة والمعلومات ؛ حتى لا تكون الشعوب الإسلامية غير عارفة بجيرانها ، الذين يناصبونها العدا ، وكذلك حتى تكون الشعوب الإسلامية في مقدورها أن تنهض من نومها ، وأن تستيقظ من سباتها الذي سمح بالفعل لهؤلاء الملعونين بأن يستولوا على دول معينة من أيدي المسلمين ، ومن هنا أحالوا الأراضي الإسلامية إلى مواطن للكفر . وللتزود بهذه المعلومات والمعارف . . فإن الجغرافي "كاتب جلبي" يقول إنه اعتمد على "الأطلس الأصغر" الإفرنجي ، وعلى أعمال أخرى كان قد ترجمها .

والجزء الأول من الكتاب مقدمة ويتكون من جزئين ، أحدهما حديث عام عن الدين المسيحي ، قائم على أعمال مكتوبة باللغة العربية ، كتبه النصراني الذين اعتنقوا الإسلام في العصور الوسطى ، صريحة العداء في الشكل العام وشديدة العداء في الغرض .

والجزء الثاني من المقدمة يمد القارئ بمعلومات عن النظم الأوروبية للحكومة . وقد قدم هذا في صورة مجموعة تعريفات بشرح لعدد من الألفاظ السياسية الأوروبية مثل لفظ "إمبراطور" و"ملك" الخ ، وتبع ذلك بالمراتب في الكنيسة والدولة ، تلك التي اهتم بتمييزها ، إنها تتضمن قداسة البابا والكاردينال والبطريرك والكونت ، بالإضافة إلى الألقاب العلمانية الأخرى . وينتهي جزء المقدمة بجملته مختصرة في اللغات أتت على النحو التالي : "هذه الفرقة المستكبرة" .

ويعلق "كاتب جلبي" على عدد كبير من اللغات الناطقة بالأوروبية والغموض المتبادل . ويتكون بقية الكتاب من تسعة فصول ، تتعلق بالباباوية والإمبراطورية وفرنسا وإسبانيا والدانمارك وترانسلفانيا والمجر وفينيسيا ومولدافيا ، ومن الواضح أن هذه هي الدول الأوروبية التي اعتقد "كاتب جلبي" أن من الضروري الانتباه لها . وتتكون المعلومات المعطاة من أقل من القوائم العديدة للباباوات والحكام ، التي تخللت المقالة بأجزاء غامضة من معرفة كتابة مجهولة ومختلفة .

والنظام الحكومي الوحيد الذي نوقش في تفصيل معين ، هو ذلك النظام الخاص بمدينة فينيسيا ، وبالنسبة للدولتين فرنسا وإسبانيا . . فقد كان كذلك قادراً على التزود بقدر من المعرفة التاريخية والجغرافية المحدودة . وكان "كاتب جلبي" ذاتية حسنة ، ذلك أن كتاباته في الجغرافية وفن الخرائط تبرهن على ذلك ، وتدل على المجهودات التي قام بها للحصول على معرفة من مثل هذه المعارف التي كانت متاحة له . ولاشك في أنه كان على حق في وصفه للأدب المبكر الذي استمد منه أفكاره عن أوروبا ، ورأى فيه تقدماً جوهرياً كبيراً . وبالتأكيد فإن لم يكن هناك شيء قابل للمقارنة متاحاً في العربية

أو الفارسية حتى القرن التاسع عشر ، وكذلك فإن تقديمه متاحاً في العربية أو الفارسية حتى القرن التاسع عشر .

وكذلك فإن تقديمه للتاريخ الأوروبي والشئون الجارية الذي كتبه عام ١٦٥٥ يبدو ساذجاً وتافهاً ، إذا ما قورن بالتصور الأوروبي للعثمانيين . وقبل ما كتبه "كاتب جلبي" بأكثر من قرن في مقاله فإن القارئ الأوروبي كان تحت تصرفه قدر كبير من الأفكار التفصيلية الجيدة عن التاريخ العثماني والمؤسسات العثمانية بما في ذلك الترجمة ، التي تمت لكتابات بعض المؤرخين العثمانيين العظام الأوائل . ولم يكن الاهتمام الأوروبي مقصوراً على الأتراك العثمانيين الذين عاجلوا المشكلات الجارية ذات الأهمية .

ولقد اهتموا كذلك لفترة بالتاريخ المبكر والثقافة الأولى للإسلام ، وأنتجوا بالفعل أدباً شاملاً اشتمل على طبعات وترجمات لنصوص عربية بالإضافة إلى دراسات لتاريخ المسلمين وفكرهم ورسائلهم . وفي أيام "كاتب جلبي" كانت هناك بالفعل مناهج عربية ، في عدد من الجامعات الأوروبية الغربية ، ومثل جاكوب جوليوس في هولندا وإدوارد بوكوك .

في إنجلترا . . كانوا يضعون أسساً للاستشراق الكلاسيكي ، ونحو نهاية القرن السابع عشر عندما أعد الفرنسي بارتلومي هربيلوت القاموس الشرقي . وهو قاموس حرفي خاص بالحضارة الشرقية ، كان قادراً على استغلال الكم الجوهري من الأدب المنشور في اللغة اللاتينية ، بالإضافة إلى عدد من اللغات العامية الأوروبية ، وجاء جزء من المعرفة عن طريق الأسرى الهاربين أو المحررين ، وجزء عن طريق المسافرين السياسيين أو التجارين . ولكن هذه المعرفة زادت عن طريق جيل جديد من العلماء الذين كانوا يطبقون على دراسة اللغات والآداب الإسلامية ، الأساليب التي أتقنتها أوروبا لمعالجة ودراسة النصوص القديمة المنقوشة .

بالنسبة لكل ذلك لم يكن هناك شيء يقبل المقارنة من بعيد بين المسلمين ، حيث اقتصرت المعرفة ، سواء المتعلقة بفقهاء اللغة أو غيرها ، على آثار إيمانهم الخاص ، وقانونهم وأديبهم . ومع هذا كان هناك شيء معروف عند الغرب ، وقد يكون مجدداً أن ننظر إلى المصادر والمضمون الخاص "بالأكاذيب والخرافات" التي أدانها "كاتب جلبي" بمنتهى الشجاعة العدل .

وأول تقارير جديدة في العربية حول أوروبا الغربية بقيت ، هي تلك التي ظهرت إبان القرن التاسع . لقد نهلوا بنهم من المصادر اليونانية ، وبصفة خاصة من جغرافية بطليموس ، ويبدو أن هذه الجغرافية قد ترجمت مرات عديدة إلى العربية . والنص الباقي عبارة عن نص تم في بداية القرن التاسع ، على يد الفيلسوف الرياضي الآسيوي المشهور محمد بن موسى الخوارزمي <sup>(٢)</sup> ، بترجمة بطليموس ولكنه أدخل في رؤيته عدداً من التصحيحات والإضافات المشتقة من المعرفة الجغرافية المتاحة للفرس والعرب . وكان هذا صحيحاً حتى بالنسبة للتفكير الأوروبي الغربي على الرغم من أن ذلك كان بعيداً عن أجزاء أخرى من العالم . ولسوء الحظ . . وضع الأوروبيون أسماء ، شوهت بطريقة بشعة فسي إحدى النقوش المتبقية ، إلى درجة أن بعض هذه الأسماء غير معروف ، أو لا يمكن التعرف عليه .

من هذه الترجمة وربما من بعض الأعمال الأخرى المترجمة - بما فيها الكتابات السورية علاوة على الكتابات اليونانية - كان العلماء المسلمون قادرين على الحصول على بعض الأفكار الخاصة بالشكل الجغرافي لأوروبا الغربية ، وكذلك الخاصة بأسماء بعض الأماكن .

وفي الحال بدأوا في تقديم أعمال جغرافية خاصة بهم ، وتلك الأعمال - على الرغم من أنهم كرسوا بصفة عامة مكاناً صغيراً لهذا المكان البعيد وغير المهم مثل أوروبا الغربية - فإنها لم تحقق على الرغم من ذلك انتشاراً تدريجياً للمعرفة <sup>(٣)</sup> .

وأول جغرافي مسلم وصل إلينا عمله ، هو بالتأكيد "ابن خرداذبه" (\*) ، وهو الجغرافي الفارسي الذي كتب باللغة العربية نحو منتصف القرن التاسع . وكان موظفاً ورئيساً في مكتب بريد بالدولة ، مسئولاً عن وثائق الدولة وعن تناوب الخدمة ، وكتابة الكثير من الأدب الجغرافي الخاص بالإسلام في القرون الوسطى فقد كان على الأقل في جزء منه ، توحى به الاحتياجات ، وتفيد من ملفات الخدمة في العمل . لقد كان هذا الكتاب بطبيعة الحال متعلقاً أساساً بالحدود في ظل الحكم الإسلامي . ومع ذلك . . فقد أولى هذا الكتاب اهتماماً بالامبراطورية البيزنطية التي كان لها خدمة بريدية على علاقة بتلك ، التي في كاليفيت ، ويمدنا الكتاب بقدر مختصر عن الأجزاء والمناطق الأوروبية الأبعد .

"ويقول ابن خرداذبه " وقسمت الأرض المعمورة على أربعة أقسام ، فمنها أروفي وفيها الأندلس والصقالب والروم والفرنجية وطنجة وإلى حد مصر ولوبية وفيها مصر والقلزم ، والحبشة والبربر" ، وهذا التقسيم جاء في نصوص عربية قديمة أخرى ، ولكنها قليلة جداً ، تسجله المصادر اليونانية ويختص تماماً هذا التقسيم من الأدب الجغرافي الإسلامي وأوروبا ابن خرداذبه بهجاء "Uraga" تتكون من الأندلس (إسبانيا الإسلامية) والأراضي السلافية ، والرومانية والأراضي الإفرنجية والدولة من طنجة إلى حدود مصر (٤) .

وقد تعلم ابن خرداذبه نوعاً في إسبانيا المسلمة ، وهي جزء من دار الإسلام . وعن الدول الواقعة فيما وراء حدود المسلمين يقول: "ورمية وبرجان وبلدان الصقالب

(\*) هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، الذي اعتنق جده الإسلام ، وكان أبوه سنة ٢٠١هـ (٨١٦م) والياً على طبرستان (الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٠١٤ وما بعدها ) نشأ في بغداد حيث درس الموسيقى والأدب على إسحق الموصلي ، وتولى بعد ذلك البريد بنواحي الجبل ( إقليم ميديا قديماً) وكان يكتب في سامراء بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣٤هـ ، موظفاً في ديوان البريد المركزي :

١- كتاب المسالك والممالك .

٢- كتاب اللهو والملاهي .

٣- حديث عن أصل الموسيقى وفن الغناء والنغم ، ألقاه في مجلس الخليفة المعتمد .

٤- يذكر أبو العلاء المعري ( رسالة الغفران ٧٩/٢ ص ٥) "طبقات المنعنين" لابن خرداذبه . وتوفي في حدود سنة ٣٠٠هـ ( المترجم) .

والإبر شمالي الأندلس ، والذي يجيء من البحر الغربي الخدم الصقالب والروم الإفرنجيون واللمبرديون والجواري الروميات والأندلسيات وجلود الخنز والوبر ، ومن الطيب الميعة ، ومن الصيدنة المصطكى ، ويقلع من قعر هذا البحر بغرب فرنجة البسذ bussadh وهو الذي تسميه العامة المرجان .

فأما البحر الذي خلف الصقالبة وعليه مدينة تولية . . فليس يجري فيه مركب ولاقارب ولا يجيء منه شيء ، وكذلك البحر الذي فيه جزائر السعادة لا يركب فيه ولا يجيء منه شيء وهو غربي أيضاً<sup>(٥)</sup> .

وكان هناك تجار يهود . . يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديساج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف<sup>(٦)</sup> .

لقد أعطى التجار اليهود الذين تحدث عنهم ابن خرداذبه نهضة للأدب التعليمي ، وقد قامت محاولات عديدة للتحقق منهم وتوطينهم وتقدير أهميتهم . ويبدو كذلك أنهم كانوا أصلاً من الشرق الأوسط وليسوا من الغرب .

وهناك فقرات متماثلة نجدتها في كتابات اثنين آخرين من الجغرافيين المسلمين في ذلك الوقت . واحدة من هذه الفقرات لابن الفقيه<sup>(\*)</sup> . (٩٠٣هـ) تتبع سلفه ، ولكنه أضاف التالي :

" والإقليم السادس فرنجة وأمم أخرى ، وفيه نساء من عاداتهن قطع ثديهن وكيه في صغرهن لثلا يعظم "

أما الآخر فهو ابن رسته<sup>(\*\*)</sup> (٩١٠هـ) ويخبرنا أيضاً بنفس القصة ، ولكنه يضيف تفصيلاً جديداً مثيراً :

(\*) هو أبو بكر أحمد بن إسحق بن الفقيه الهمذاني ، ولد في المدينة الفارسية همذان ، وألف كتاب "البلدان" عقب وفاة الخليفة المعتضد سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢م).

(\*\*) هو أبو علي أحمد بن عمر بن رسته كتب في أصفهان بعد سنة ٣٣٠ ، (٩٢٢م) موسوعة عنوانها "الأعلاق النفسية" يتناول الجزء السابع منها الجغرافيا .

" وفيه أيضاً من ناحية الشمال اثنتا عشرة جزيرة تسمى جزائر بريطانية Barayttiniya ثم يبعد من العمران فلا يعرف أحد كيف هو " (٨) .

وثلاثهم جميعاً يذكرون اسم روما التي كان لديهم قصص أكثر غرابة يحكونها عنها . وفي القرن العاشر . . كانت هناك معرفة أكثر اتساعاً متاحة للفقراء المسلمين ، وكان أعظم كاتب جغرافي في زمنه هو المسعودي (٩٥٦م) ، وتشتمل ملاحظاته عن شعوب أوروبا على أصداء أفكار جغرافية يونانية مع إضافات شيقة :

"وأما أهل الربيع الشمالي ، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجية ومن جاورهم من الأمم . . فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ؛ فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم وتبلدت أفهامهم وثقلت وألستهم ابيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ورقت جلودهم وغلظت لحومهم ، وازرقت أعينهم أيضاً ، فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبقت شعورهم ، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن في مذاهيم متانة . وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة .

(\*) هو أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، ولد في بغداد ، وهو ينتمي إلى أسرة يرجع نسبها إلى عبد الله بن مسعود ، صاحب النبي ﷺ وكان أسلوبه الثقافة التي درج عليها الحديث في زمانه يتطلب منهم الرحالة إلى أهم حواضر الإسلام طلباً للحديث والعلم ، فلم يقنع المسعودي باقتفاء أثرهم ، بل دفعه تطلعه العلمي إلى تجاور البلدان الإسلامية والتجوال فيما وراءها بحثاً عن أخبارها جمعها لمعارفها . وبعد أن طاف ببلاد فارس وكرمان ، وأقام في اصطخر سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، ورحل إلى الهند فزار أولاً "ملطان" و "المنصورة" ثم مر "بكتباية" و "صيمر" فوصل إلى "سرنديب" في جزيرة "سيلان" ومن ثم أبحر مع رفقة من التجار إلى الصين ، ثم رجع أدراجه إلى "زنجبار" و "عمان" . وبعد جولة قصيرة له في البلدان المحيطة ببحر الخزر ، نلتقي به سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م عند طبرية في فلسطين . وفي سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م طاف في أنطاكية وثغور الشام ثم رجع إلى البصرة ، وذهب بعد ذلك سنة ٣٣٤هـ إلى دمشق . وفي السنة عينها نزل بمدينة القسطنطينية في شهر جمادى الآخرة سنة ٢٤٥هـ / ٩٥٦م ، وقيل سنة ٣٤٦هـ وله من مصنفاته :

- ١- كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الحالية والممالك الدائرة .
- ٢- كتاب الأوساط وهو مختصر من الكتاب السابق . ٣- كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر .
- ٤- كتاب التنبيه والإشراف .
- ٥- رسالة في إثبات الوصية لعلي بن أبي طالب .
- ٦- رسالة في أحوال الإمامة .

ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهاثية وتزايد ذلك فيهم الأبعد فالأبعد إلى الشمال . . .

وأما من كان خارجاً عن هذا العرض إلى نيف وستين ميلاً يأجوج ومأجوج وهم في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم \* (٩) .

ونفس المؤلف يعقب في عمل آخر ، ويقول:

"الإفرنجة والصقالبة واللومبارد والإسبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزروبرجان واللان والجلالقة وغيرهم ممن ذكرنا ، ممن حل بالجرى وهو الشمال لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين ، أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافت بن نوح وهو الأصغر من ولد نوح ، فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً وأمنهم جنبه وأكثرهم عدة وأوسعهم ملكاً وأكثرهم طاعة ، إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً وأعظم منهم نكاية ، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الفرنجة .

وكلمة الإفرنجة متفقة على ملك واحد لا تنازع بينهم في ذلك ولا تحزب ، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بريزة ، وهي مدينة عظيمة ، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور \* (١٠) .

من خلال هذه الكتابات الجغرافية وتلك العربية والفارسية لهذا الزمن . . فإنه من الممكن تكوين صورة عن الشكل الأوروبي كما كان يبدو لعيون المسلمين . وإلى الشمال من الأراضي المتحضرة في الأندلس الإسلامية ، في جبال شمال إسبانيا وتلال بايريني المجاورة كانت هناك شعوب بدائية مسيحية غير متحضرة هي شعوب الغال وسكان جبال البرانس . وفي إيطاليا ، شمال المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين ، كانت حدود روما ، التي يحكمها ملك قس يدعى البابا ، ووراء ذلك في الدولة التالية توجد طائفة من الشعوب الهمجية تدعى لومبارد . وعند الحدود الشرقية للبحر الأبيض في الشمال من الحدود الإسلامية كانت مملكة الروم ، الإمبراطورية اليونانية المسيحية ، ووراء ذلك كانت أراضي سلافيا الواسعة مجالاً هائلاً مقسماً إلى شعوب عديدة ، بعض هذه

الشعوب كان معروفاً للمسلمين التجار والمسافرين ، وغرب سلافيا كانت المملكة الواسعة Franja فرنجا ، وهي أرض الفرنجية التي تصل كل المسار إلى الحدود الشمالية للألب والبايريني وبين هذه السلطات ، ومن بعضها بالتحديد تميز شعب آخر يدعى البورجان أو بورجوند ، ثم بالاتجاه أكثر إلى الشمال فيما وراء الإفرنج . . كان هناك عبدة النار المجوس ، وهو اللقب والصفة التي نقلها العرب تماماً من الفرس القدامى إلى الاسكندنافيين<sup>(١١)</sup> وألقاب قليلة لتلك الأراضي الأبعد شمالاً ، ولا تظهر في الكتابات الإسلامية بريطانيا ، وأحياناً أيرلندا وكذلك اسكندنافيا .

ومن وقت لآخر استخدم المؤلفون المسلمون لفظ الروم (Röm) لأوروبا الوسطى والغربية ، ويجعلونه بذلك يتطابق في شكل جامد مع المسيحية . ومع ذلك . . فإن الأوروبيين الغربيين شاع أكثر تعريفهم بمجموعة الألقاب مختلفة أكثر هذه التسميات شيوفاً هو إفرنج Ifranj أو فرنج Firanj وهي الصورة العربية لإسم الإفرنج . وربما وصل هذا الإسم إلى المسلمين عن طريق بيزنطة ، وأطلق أساساً عندهم على سكان الامبراطورية الغربية إمبراطورية شارلمان ، وبعد ذلك امتد إلى الأوروبيين بصفة عامة هذا الإسم . وفي استخدام العصور الوسطى . . لم يكن مطبقاً بطريقة عادية على المسيحيين الأسبان أو الشعوب الإسكندنافية ، ولكنه استخدم على الرغم من ذلك بمعنى شامل عام لقارة أوروبا والجزر البريطانية ، وكانت أرض الإفرنج معروفة في اللغة العربية فرانجا (Franja) أو إفرنجا (Ifranja) وفي اللغة الفارسية ، وكانت معروفة بعد ذلك في اللغة التركية باسم فرانجستان .

وهناك لقب يستخدم أحياناً في نصوص العصور الوسطى ، يشير إلى شعوب أوروبا ، وهو بنو الأصفر التي تعني " أبناء الرجل الأصفر " . في البداية أطلق هذا المصطلح عند العرب القدماء على اليونانيين والرومانيين ، ثم امتد فيما بعد إلى أمم إسبانيا ، ثم أطلق بعد ذلك على الأوروبيين بصفة عامة . واستمد علماء الأنساب المسلمون عادة هذا الاصطلاح من اسم شخص هو أصفر ، وهو الابن الأكبر اسو وأبو روميل سلف اليونانيين والرومان (الروم) . وبعض العلماء شرح هذه التسميات باعتبارها

تشير إلى اللون الفاتح لجلد الأوروبيين ، أي اللون الأصفر ، والاشقر الذي كان على العكس من اللون البني والأسود في آسيا وأفريقيا . وهذا الأمر لا يبدو متشابهاً . فالمؤلفون العرب والفرس عادة ما يسمون البيض بيضاً وليس صفراً ؛ علاوة على ذلك .. فإنهم نادراً ما يتحدثون عن الأوروبيين بألقاب الجنس أو اللون . ولما كانوا عارفين بالتناقض بين أنفسهم وجيرانهم ذوي البشرة السوداء إلى الجنوب والشرق ، فقد أعطوا أهمية قليلة جداً إلى البشرات الأفتح نوعاً ، تلك التي يتميز بها جيرانهم في الشمال . وهناك استدلال آخر ، عادة مهين لذوي اللون الأبيض من الأجناس الشمالية ، بما فيها تركيا وشعوب الاستبس الأخرى أكثر من الإفرنج . في العصور العثمانية كانت تسمية بنو الأصفر تستخدم أحياناً للشعوب الصقلية من أوروبا الوسطى والشرقية ، ولكنها استخدمت بصفة خاصة للروس الذين يدعى أحياناً قيصراً بالملك الأصفر (١٢) .

ما هي مصادر معرفة المسلمين عن الغرب ؟ المصادر الأوروبية التي استخدموها كانت بصفة رئيسة يونانية ، مع بعض الإضافات القليلة من المصادر السورية والفارسية ، وبالتأكيد .. لم يتعلموا كثيراً من الكتب الغربية ، وعلى قدر ما نعرف .. فإن كتاباً غربية واحداً ترجم بالفعل إلى اللغة العربية في العصور الوسطى . وكتاب أو كتابان يمكن أن يكونا قد صارا معروفين بوسائل غير مباشرة ، وهكذا يقدم المسعودي قدراً مختصراً عن ملوك الإفرنجية من كلوفس إلى لويس الرابع ، ويقول إنه يعود إلى كتاب أسقف إفرنجي في عام ٩٣٩م لمعرفة الحكم أمير قرطبة .

قال المسعودي : \* ووجدت في كتاب وقع إلى بفسطاط مصر ، سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، أهداه غدمار الأسقف بمدينة جرندة من مدن الإفرنجية ، في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت المخاطب في عمله بأمر المؤمنين ، أن أول ملوك الإفرنجية قلودويه وكان مجوسياً فنصرته امرأته وكان اسمها غرطلد .

ثم ملك بعده ابنه لزريق ، ثم ولى بعد لزريق ابنه دقو برت ، ثم ولى بعده ابنه لزريق ، ثم ولى بعده قرلمان أخوه ، ثم ولى بعده ابنه قارله ، ثم ولى بعده ابنه قارله ، ثم ولى بعده ابنه بين ، ثم ولى بعده ابنه قارله وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة ، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس وتدافع أولاده بعده ، ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجية ، بسبيهم ، وصار لزريق بن قارله صاحب ملكهم فملك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذي أقبل إلى طوشة فحاصرها . ثم ملك بعد قارله بن لزريق ، وهو الذي كان يهادي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وكان محمد يخاطب بالإمام ، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر ، ثم ولى بعده ابنه لزريق ستة أعوام ، ثم قام عليه قائد للإفرنجية ، يسمى قومس فملك الإفرنجية وأقام في ملكهم ثمانين سنين وهو الذي صالح المجاس عن بلده سبع سنين ، بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة ، يؤديها صاحب الإفرنجية ، إليهم ثم ولى بعده قارله بن تقوية أربع سنين ، ثم ولى بعده قارله آخر فمكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، ثم ولى بعده لزريق بن قارله وهو ملك الإفرنجية إلى هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، وقد استوفى في مملكته عشر سنين إلى هذا التاريخ على حسب ما نعى إلينا من خبره " (١٣) .

ومن بين ١٦ اسماً في قائمة المسعودي كانت العشرة أسماء الأخيرة من شارل مارتل إلى لويس الرابع التي يمكن التأكد منها والتحقق منها نوعاً . وبين الست أسماء الأولى كلوفيس وزوجته كلوتيلد وابنه العظيم داجويرت لصعوبة فيهم . أما بقية الأسماء فمن غير الممكن التحقق منها بين حكام مير وفنجينا وكارولنجيا .

وأهمية الفقرة مع ذلك لا تنصب على القائمة الفعلية بالأسماء التي تعج بالأخطاء والحذف . وإنما تنصب على وجودها . والتاريخ الكلاسيكي للعالم الإسلامي يتميز بالأهمية والخطورة وربما بصورة أوضح من كل الدول في أوروبا في العصور الوسطى مجموعة ، وفي مستوى أعلى من الفلسفة . إنها مميزة بأنه على الرغم من المواجهة الطويلة بين الإسلام والمسيحية عبر البحر المتوسط من إسبانيا ، ومن خلال صقلية إلى

البلاد الواقعة في شرق البحر المتوسط . . فإن هناك نقصاً كبيراً في الاهتمام والانشغال بين العلماء المسلمين بما كان يجري وراء الحدود الإسلامية في أوروبا . ومن أول حقبة الألف عام . فإن ثلاث كتابات فقط هي التي بقيت وتمتد القارئ المسلم بأي معرفة عن تاريخ أوروبا الغربية . وقائمة المسعودي هي أولها .

إذا كان تاريخ أوروبا الغربية مهملًا تماماً تقريباً . . فإن جغرافية أوروبا الغربية استمرت تلقي بعض الانتباه . إن معرفة المسلمين هي التي كرسست جل الاهتمام للجغرافية ، وقدمت أدباً غزيراً في هذا الموضوع . وبداية بالأشياء الملائمة ذات الأهمية من الأعمال اليونانية فقد أثرى هذه المعرفة عدد من كتب الرحالة ، وبالفعل فقد قدم العلماء المسلمون كتابات قضايا نظامية ، بعضها في صورة مقالات في الجغرافية ، والبعض الآخر خاص بالقواميس الجغرافية الأبجدية . وقد تضمنت هذه في الغالب بعض الأسماء الأوروبية .

وكان اسم "روما" العظيمة بطبيعة الحال معروفاً للعالم الإسلامي ، حيث كان مع ذلك تختلط معه بيزنطة ، التي شاع أن يطلق عليها كلمة "الروم" .

بعض العلماء مع ذلك كانوا عارفين "بروما" في إيطاليا أيضاً ، ومؤلف عربي قديم اقتبس اقتباساً طويلاً من هارون بن يحيى ، وهو أسير عربي يبدو أنه قضى فترة قصيرة في روما حوالي ٨٨٦ . ويصف هارون المدينة والكنائس في عبارات خيالية ، ويستمر إلى أن يقول :

"ومن هذه المدينة تركب البحر فتسير ثلاثة أشهر . . حتى تنتهي إلى بلاد ملك برجان ، وتسير منها في جبال وعقاب شهراً واحداً ، حتى تنتهي إلى بلاد فرنجية ، ومنها تخرج فتسير أربعة أشهر ، حتى تنتهي إلى مدينة بريطينية وهي مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب ، ويتملك عليها سبعة من الملوك ، وعلى باب مدينتها صنم إذا رام الغريب أن يدخلها نام فلا يمكنه دخولها حتى يأخذها أهل المدينة فيقفوا على مغزاه ومقصده في دخول المدينة ، وهم قوم نصارى ، وهم آخر بلاد الروم ، ليس وراءهم عمران" (١٣) .

ومن الواضح أن هارون لم يغامر إلى أبعد من روما . ومن الشيق أنه سمع عن بريطانيا وعن الحكم السباعي (\*) heptarchy الانجلوساكسوني - وكان قادراً حتى على إعطاء ما هو أول تفكير لعمليات هجر الإنجلوساكسون ، وكانت معرفته مع ذلك خارج التاريخ منذ توقفت حكومة السبعة عن الحكم ، الذي امتد حوالي ٣٠ سنة .

وكثير من معرفة هارون عن روما أتى بوضوح من مجموعات قصص روما الرائعة التي نسوق مثلاً عليها التيار الذي كان في أدب العصور الوسطى . بعض هذه القصص جمعها ابن الفقيه ، ووضعها ياقوت ، وهو واحد من أعظم الجغرافيين المسلمين ومات ١٢٢٩ . وكانت لياقوت شكوك خطيرة حول بعض القصص التي يكررها ويعيدها . وفي القاموس الجغرافي يبدأ الدخول إلى روما على النحو التالي :

'رومية Rūmiya بتخفيف الياء من تحتها نقطتان كذا قيده الثقات . قال الأصمعي : (فقيه مشهور) : وهو مثل انطاكية وأفامية ونيقية وسالوقية وملطية وهو كثير في كلام الروم وبلادهم ، وهناك روميتان : إحداهما بالروم والأخرى بالمداثن بنيت وسميت باسم ملك فاما التي في بلاد الروم ، فهي مدينة رياسة الروم وعلمهم ، قال بعضهم : هي مسماة باسم رومي بن رومية ، واسمها رومانس ؛ فعرب هذا الاسم فسمي من كان بها رومي ، وهي شمالي غربي القسطنطينية ، بينهما مسيرة خمسين يوماً أو أكثر وهي اليوم بيد الإفرنج ، ملكها يقال له ملك ألمان ، وبها يسكن البابا .

ورومية من عجائب الدنيا بناءً وعظماً وكثرة خلق ، وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأ إلى الناظر في كتابي هذا ، مما أحكيه من أمرها . فإنها عظيمة جداً خارجة عن العادة مستحيلة وقوع مثلها ، ولكني رأيت جماعة ممن اشتهروا برواية العلم قد ذكروا ما نحن حاكوه فاتبعناهم في الرواية ، والله أعلم " (١٥) .

وبعد هذه الوثيقة المهمة أو قل الوثيقة التعليمية . . يقتبس ياقوت بنهم من روايات

(\*) مجموعة من سبع مقاطعات أو ممالك متحالفة ، يحكم كلاً منها حاكمها الخاص ( المترجم ) .

العصور الوسطى - ومعظمها - ربما من أصل أوروبي - عن عجائب ومعجزات روما ، ثم ينتهي إلى الآتي :

"جميع ما ذكرته ههنا من صفة هذه المدينة فهو من كتاب محمد ابن أحمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ، وليس في القصة شيء أصعب من كون مدينة تكرون على هذه الصفة من العظم ، على أن ضياعها إلى مسيرة أشهر لا يقوم مزرعاتها بميرة أهلها ، وعلى ذلك فقد حكى جماعة عن بغداد أنها كانت من العظم وكثرة الخلق والحمامات ما يقارب هذا ، وإنما يشكل فيه أن القارئ لهذا لم ير مثله والله أعلم ، فأما أنا فهذا عذري على أني لم أنقل جميع ما ذكروا وإنما اختصرت البعض <sup>(١٦)</sup> .

ومن السهل أن تتعاطف مع وجهة نظر ياقوت . إذ إن معظم الأوصاف الإسلامية في العصور الوسطى لأوروبا الغربية مستمدة مباشرة ، أو عن طريق غير مباشر من الفكرة التي قدمها السفير إبراهيم بن يعقوب في منتصف القرن العاشر . ولا بد أن مثالين يكفيان عن أوصاف ابن يعقوب :

ايرلنده جزيرة في شمال الإقليم السادس وغربية ، قال العذري : ليس للمجوس قاعدة إلا هذه الجزيرة في جميع الدنيا ، ودورها ألف ميل أهلها على رسم المجوس وزيهم ، يلبسون برانس قيمة الواحد منها مائة دينار ، وإنما أشرفهم فيلبسون برانس مكللة باللآلئ .

وحكي أن في سواحلها يصيدون فراخ الأيلىنيه ، وهو نون عظيم جداً ، يصيدون أجزاءها يتأدمون بها وذكروا أن هذه الأجزاء تتولد في شهر أيلول ، فتصاد في تشرين الأول والثاني ، وكانون الأول والثاني ، في هذه الأشهر الأربع ، وبعد ذلك يصلب لحمها فلا يصلح للأكل .

أما كيفية صيدها .. فقد ذكر العذري أن الصيادين يجتمعون في مراكب ومعهم فئيل كبير من حديد ذي أضراس حداد ، وفي الفئيل حلقة عظيمة قوية ، وفي الحلقة حبل قوي ، فإذا ظفروا بالجرو صفقوا بأيديهم وصوتوا ، فيتلهى الجرو بالتصفيق

ويقرب من المراكب مستأنساً به ، فينضم أحد الملاحين إليها ويحك جبهته حكاً شديداً فيستلذ الجرو بذلك ، ثم يضع الفشيل وسط رأسه ويأخذ مطرقة من حديد قوية ، ويضرب بها على الفشيل بأتم قوة ثلاث ضربات فلا يحس بالضربة الأولى والثانية ، والثالثة يضطرب اضطراباً شديداً ، وربما صادف بذنبه شيئاً من المراكب فيعطبها ، ولا يزال يضطرب حتى يأخذه اللغوب . ثم يتعاون ركاب المراكب على جذبته حتى يصير إلى الساحل . وربما أحست أم الجرو باضطرابه فتبعهم ، فيستعدون بالثوم الكثير المدقوق ، ويخوضون به الماء فإذا أشمت رائحة الثوم استبعدتها ورجعت القهقري إلى الخلف ، ثم يقطعون لحم الجرو ويملحونه ولحمة أبيض كالثلج وجلده أسود كالنعش<sup>(١٧)</sup> .

إن فكرة ابن يعقوب عن صيد الحيتان في البحر الأيرلندي ، يتضح أن لها قاعدة موضوعية ، وهي تكشف عن معرفة أن الحيتان لها أمهات تصاد بالرماح . ومع ذلك فهناك مجالاً للشك حول ما إذا انطلق بحراً في إيرلندا وفكرته هذه قديمة ومستهلكة . ومن الواضح أن وصفه لسبوهيميا من ناحية أخرى قائم على تجربة مباشرة : 'بوهيميا هذه أرض الملك بويسلاف يتطلب امتدادها من مدينة براج إلى مدينة كراكاو رحلة أسابيع ثلاثة ، ويعادل مشوارها في طوله أرض الأترك .

بنت مدينة براج من الطوب والجير ، وكانت واسعة التجارة ، ذات غنى يربو على كل هذه الأراضي . وكان الروس والسلافيون يجلسون البضائع إلى هنا من كراكاو ، ويجلب المسلمون واليهود والأتراك كذلك البضائع من أرض الأتراك ، وكانوا يجلبون العبيد والحديد وأنواعاً مختلفة من الفرو . وكانت بلدهم هي أفضل البلاد بين شعوب الشمال وأغناها في علف الدواب ، وكان مقابل بنس واحد تباع كمية كافية من الدقيق تكفي الإنسان شهراً . وبنفس المبلغ يباع الشعير لغذاء الحيوانات مدة أربعين ليلة . وكانت تباع دجاجات عشر بنس واحد ، وفي مدينة براجوي . . كانوا يصنعون البرادع والتروس والدروع ، الجلدية الرقيقة التي تستخدم في هذه الأجزاء . وفي أرض بوهيميا كانوا يصنعون المناديل الرقيقة الجميلة الشبكية المزينة بالهلال ، التي لا تستخدم لشيء

وكان سعر عشرة مناديل هناك بنسأ واحداً ، وكانوا يتاجرون كل مع الآخر ويتعاملون كل مع الآخر ، ويملكون أواني يعتبرونها كالأموال وأعني الأشياء تشتري بها ، القمح والعبيد والخيول والذهب والفضة وكل شيء . ويميز شعب بوهيميا الشعر الأسود الداكن ، ويندر الجنس الأشقر بين هذا الشعب (١٨) .

لقد وضع الغزاة الصليبيين والمسلمين والغربيين في تقارب شديد واتصال قوي ، سواء في السلام أو الحرب . وفي هذه الفترة يتوقع الإنسان أن تكون لدى المسلمين تفاصيل أكثر ومعرفة أكثر دقة عن جيرانهم المسيحيين الأوروبيين ، ومعرفة أكثر جوهرية عن التقارير الغامضة والشائعات ، وتصورات الزمن القديم . ومن المؤكد أن مسلمي القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ، قد عرفوا أكثر عن الغرب ، بشكل يفوق أسلافهم في الفترة السابقة على الصليبيين . ولكننا ما زلنا لا نقدر إلا على الدهشة إزاء قلة ما عرفوه في واقع الأمر ، وكذلك إزاء قلة ما اهتموا به . وأحد الجغرافيين العظماء في ذلك العصر وهو الفارس زكريا بن محمد القزويني (\*) (١٢٨٣) يعتمد أساساً على ابن يعقوب في فكرته عن أوروبا ، وفي واقع الأمر إن الفضل يعود إليه في بقاء رواية ابن يعقوب . وعن الإفرنج يقول الآتي :

"أفرنجية بلدة عظيمة ومملكة عربية في بلاد النصراري بردها شديد جداً وهوأوها غليظ لفرط البرد . وإنها كثيرة الخيرات والفواكه والغلات ، غزيرة الأنهار كثيرة الثمار ، ذات زرع وضرع وشجر وعسل ، صيودها كثيرة الأنواع ، بها معادن الفضة ، وتضرب بها سيوف الهند .

(\*) القزويني (١٢٠٣ - ١٢٨٣م) هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، يرجع نسبه إلى أنس بن مالك إمام المدينة وفتيها المشهور . ولد في قزوین وإليها نسب ، ثم رحل إلى دمشق ، وهو شاب ، وتولى بعدئذ قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم العباسي ، آخر خلفاء بني العباس في بغداد ، وسقطت بغداد في يد هولاء المغولي ، وهو في ذلك المنصب ، كان عالماً في التاريخ الجغرافيا ، وكتابه عجائب المخلوقات أول كتاب في هذا الموضوع في اللغة العربية ، وتتصل آثار القزويني كلها بعلمي الجغرافية ووصف الكائنات ، ويساري كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد" في قيمته كتابه عجائب المخلوقات ؛ فقد جمع فيه كل ما وقع له وعرفه وسمع به وشاهده من لطائف صنع الله وعجائب كلمته المودعة في بلاده وعباده . (المترجم) .

وأهلها نصارى . ولهم ملك ذو بأس وعدد كثير وقوة ملك ، له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد المسلمين ، وهو يحميها من ذلك الجانب ، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء ، ويرون الموت دون ذلك (١٩) .

ولاشك في أن جزءاً من ذلك يأتي من كاتب أقدم ، ربما كان ابن يعقوب ولكن الجزء المتأخر بإشارته إلى ممتلكات الإفرنجية " في وسط أراضي " والدليل القاطع الذي يسوقه هذا الجزء على قوة الأسلحة الإفرنجية يبدو أنه يرجع تاريخه إلى زمن الصليبيين . وملاحظات القزويني جديرة بأن تعكس الانطباعات الناتجة من الاتصال المباشر ، إنها شيء مختلف تماماً عن روايات الرحالة والأساطير والشذرات المنقحة من التعليم اليوناني ، الذي شغل أفكار الغرب الأولى .

وكانت هناك معرفة متاحة نوعاً في الغرب الإسلامي ، في شمال أفريقيا وإسبانيا ، حيث وضع تقدم الغزو المسيحي المسلمين في اتصال مقرب - ولو أنه غير مرحب به - مع أوروبا . وهناك جغرافي من القرن الثاني عشر يدعي الزهري ، ربما كان يكتب في إسبانيا يتحدث عن البندقية وأمالفي وبيزا وجنوة مع بعض الملاحظات عن تجارها ومنتجاتها . ويذكر عن جنوة أنها " واحد من أعظم المدن الرومانية والإفرنجية وشعبها كان قريش الرمان " ولما كانت قريش القبيلة المكية التي ينتمي إليها النبي ﷺ هي أشرف القبائل العربية فإن هذا الوصف مبالغ فيه .

وهذا ليس هو كل شيء ؛ فالزهري يستمر في حديثه إلى أن يصل إلى أن أهل جنوة ينحدرون عن قبيلة عربية تعتنق المسيحية هي قبيلة غسان ، كانت تعيش على الحدود السورية العربية قبل ظهور الإسلام . " وهؤلاء الناس لا يشبهون الرومان في مظهرهم ؛ فغالبية الرومان يتميزون بالجمال ، أما هؤلاء فإنهم يتميزون باللون الأسود والشعر المعجد والأنف الشامخة . وهذا هو السبب في القول بأنهم ينحدرون من العرب " (٢٠) .

في تلك الاثناء كتب مسلم غربي آخر يعيش في ظل الحكم المسيحي في صقلية النورماندية كتاباً ، يمثل مستوى سطح المد والجزر لمعرفة المسلمين الجغرافية في العصور الوسطى عن أوروبا ، بالإضافة إلى بقية العالم ، هذا الكاتب هو أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي ، وهو سليل عائلة حاكمة مراكشية ، ولد في كيوتا في مراكش عام ١٠٩٩ ، وبعد أن درس في قرطبة وكان يسافر عادة إلى أفريقيا والشرق الأوسط ، قبل دعوة من الملك النورماندي في صقلية روجر الثاني واستقر في بالرمو ، وهناك أتم أفضل أعماله الجغرافية المعروف "كتاب روجر" على أساس رحلاته ومعرفته التي جمعها من معارف أخرى . ولقد انتهى من هذا العمل سنة ١١٥٤ ، وهذا الكتاب يتضمن كما هو متوقع معرفة أكثر عن إيطاليا ، وكذلك يشتمل على أوصاف تفصيلية عن معظم أوروبا ، وفي هذه الفصول أدلى الإدريسي اهتماماً محدوداً بكتابات المسلمين الجغرافية ، ويبدو أنه يعتمد بشكل مباشر على المعارف المسيحية الغربية وعلى الخرائط الغربية ، وكان هذا متاحاً له في صقلية النورماندية ، وعلى النحو التالي . . وهكذا يبدأ الإدريسي وصفه للجزر البريطانية :

"يتكون الجزء الأول من المناخ السابع عن المحيط وجزره مهجورة ، وغير مأهولة بالسكان ، ويحتوي الجزء الثاني من المناخ السابع على جزء من المحيط الذي توجد فيه جزيرة إنجلترا ، وهذه جزيرة عظيمة تشبه رأس نعام ، وفيها جزر مأهولة بالسكان وجبال عالية وأنهار جارية وسهول . وخصوبتها عالية وشعبها جاف وصعب ، يتميز بشتات العزيمة والشتاء هناك مستديم . وأقرب لها وزانت Wissant في أراضي فرنسا ، وبين هذه الجزيرة والقارة . . يوجد ١٢ ميل عرضاً . . ." (١١) .

ويستمر الإدريسي بعد ذلك في وصف دورشستر وويرهام ودارتموس ، والجزء الضيق من الجزيرة التي تدعى كورنول التي تشبه منقار الطائر . سالزبوري وسوثامبتون ، ونشستر ، وشوريهام وهاستنجنس " ، وهي مدينة ذات حجم معقول وعدد كبير من السكان ، مزدهرة بالأسواق والحرفيين والتجار ودوفر ولندن ولنكولن ودورهام . وفيما وراء هذه المناطق تقع اسكتلندا التي يتحدث عنها الإدريسي على النحو التالي : "إنها

ترتبط بجزيرة انجلترا وهي شبه جزيرة طويلة إلى الشمال من جزيرة أكبر إنها غير مسكونة ، وليس بها مدينة أو قرية وطولها ١٥٠ ميلاً . . . .<sup>(٢٢)</sup> .

وكذلك يسمع الإدريسي عن مكان أبعد :

"من آخر حدود شبه الجزيرة الخالية ، شبه جزيرة اسكتلندا إلى آخر حدود جزيرة أيرلندا . . توجد مسافة إبحار يومين نحو الغرب . ويقول مؤلف "كتاب العجائب" (وهو كتاب شرقي قديم) إن هناك ثلاث مدن ، وقد اعتادت هذه المدن أن تكون مسكونة ، واعتادت السفن أن تذهب إلى هناك وتشتري الكهرمان والأحجار الملونة من مواطنها الأصلية . بعد ذلك حال أحدهم أن يجعل نفسه حاكماً عليهم . . فشن حرباً ضدهم بشعبه فحاربوه ، وظهرت بينهم العداوة ، فأباد كل منهم الآخر ، وهاجر بعضهم إلى اليابسة . وهكذا حطمت مدنهم ولم يبق سكان فيها"<sup>(٢٣)</sup> .

إن معرفة الإدريسي عن الجزر البريطانية معرفة ضئيلة نسبياً . فلم يعرف جيداً عن القارة الأوروبية حدودها الشمالية أو الشرقية . وأوصافه للجزر بأنها تشبه رأس نعامة أو منقار طائر تشير إلى أنه قد نظروا إلى ذلك ، وربما أيضاً التقط أسماء متعددة للمكان الذي يذكره . وحذا الجغرافيون المتأخرون حذو الإدريسي وقد وضع مؤلف - غير مؤكد التاريخ ومن مكان ما في الغرب الإسلامي - يدعى ابن عبد المنعم قاموساً جغرافياً يتضمن مواد عن أوروبا . أما ابن صاعد (١٢١٤ - ١٢٧٤) ، من الكالاريال كتب "جغرافية العالم" التي اقتبس منها الكتاب المسلمون المتأخرون كثيراً وكثيراً في كل من الغرب والشرق . ويحتوي فكر ابن صاعد عن الغرب على عدد شيق من القصص . فيتحدث عن انجلترا فيقول<sup>(\*)</sup> : "وصاحب هذه الجزيرة يسمى الانكتار في تاريخ صلاح الدين في حروب عكا"<sup>(٢٤)</sup> ، والحاكم المذكور في تاريخ صلاح الدين هو بالطبع ريتشارد قلب الأسد الذي يظهر في كل حسابات المسلمين عن الحرب الصليبية الثالثة تحت نفس الإسم الغريب الانكتار . ولدى المؤرخين المسلمين أقوال كثيرة من الأعمال

(\*) النص مأخوذ من كتاب تقويم البلدان (الترجم) .

العسكرية والسياسية للصليبيين من الشرق ، ولقد أظهروا مع ذلك اهتماماً ملحوظاً بسيطاً بالشئون الداخلية للبلاد الصليبية ، التي تتباين فرقها العسكرية القومية ، ولا أحد على الإطلاق في بلادهم له أصل . إن تحقق ابن صاعد من سكان هذه الجزر البعيدة والغامضة تصوير للتاريخ السوري الفلسطيني هو أمر غير مألوف ؛ لأن معظم المسلمين المؤرخين كانوا يعدونهم جميعاً كفاراً أفرنجيين جاءوا من الأراضي الشمالية للبرابرة ، وكلما أسرعوا في العودة هناك . . كان ذلك أفضل وندراً ما يذكر الحكام والقادة الإفرنج بأسمائهم ، ولكن يوصفونه بالقباب أو أوصاف مبهمة وعادة تتبع هذه الألقاب بهذا التعبير " رحلة موفقة لروحه إلى الجحيم " أو بشيء من هذا القبيل .

يوشك المؤرخون أن يقيموا علاقة (يربطوا بين معرفتهم للإفرنج في سوريا والمعرفة الضئيلة عن أوروبا الموجودة في كتابات جغرافي الطبيعة والجغرافيين والرحالة . وأما فكرة أن الدين الإفرنجي والفلسفة والعلم والأدب يمكن أن تنال أي اهتمام ، فلا تبدو أنها طرأت لأي منهم على الإطلاق ، ولا نستطيع حتى القرن الرابع عشر بعد عدة قرون من العلاقات التجارية والدبلوماسية (السياسية) أن نرجع إلى كاتب عربي ، أبسط الأفكار عن إمكان وجود مثل هذه الأمور في أوروبا . إنها قد تأتي - كما قد نتوقع - من أحد أصحاب العقول العظيمة ، التي أنتجت الحضارة الإسلامية ، ويمكن التعبير عنها في عبارات أدبية (تعليمية) خاصة .

في الجزء الجغرافي من مقدمة ابن خلدون المشهورة . . يضع المؤرخ وعالم الاجتماع التونسي العظيم ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وصفاً لأوروبا الغربية ليس فيه أكثر مما يمكن أن يوجد في كتابات الإدريسي والجغرافيين المسلمين الآخرين . وفي نهاية "المقدمة" مع ذلك . . توجد فكرة عن أصل وتطور العلوم العقلية التي تشتمل على قبول التغيير . وبعد وصف أصول توجد فكرة عن أصل وتطور العلوم العقلية التي تشتمل على قبول التغيير . وبعد وصف أصول العلم بين اليونانيين والفرس ، والشعوب القديمة الأخرى ، يستمر ابن خلدون في مناقشة تطور هذا العلم في ظل الإسلام وانتشاره نحو الغرب عبر شمال أفريقيا إلى إسبانيا ، ثم ينتهي في حديثه إلى السطور التالية :

"كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض رومة ، وما إليها من العروة الشمالية نافقة الأسواق ، وعن رسوماها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة متفرقة وطلبتها متكثرة ، والله أعلم بما هنالك ، وهو يخلق ما يشاء ، ويختار " (٢٥) .

وهذا الجزء الأخير معناه مقتبس من القرآن ، ويبدو أنه شيء يفوق الاعادة مثل مولد التعليم بين الإفرنج ؛ حيث لم يكن واقعاً وراء نطاق قدرة الله على كل شيء .

وكان ابن خلدون أيضاً مؤلفاً للتاريخ العام ، كتب له مقدمة عرفت واشتهرت "بمقدمة ابن خلدون" وهذا التاريخ الذي ألفه كما قد يتوقع الإنسان ينصب تماماً على شمال افريقيا ، ويتضمن المصير المؤلم للصليبيين الذي قادهم الملك المقدس لويس التاسع ملك فرنسا ، ضد تونس . . وهذه الفكرة واضحة في نواح متعددة . فابن خلدون يعطي اسماً لحاكم فرنسا وهو سان لويس ابن لويس ولقبه الذي كان يطلقه عليه هو ملك فرنسا . وكذلك كان عارفاً بأن الملك كان معروفاً بالقديس . على الرغم من أن المؤرخ ابن خلدون لم يستخدم كلمة صليبية . . فإنه مع ذلك يقوم الحملة على تونس ؛ باعتبارها جانباً من الصراع التاريخي بين المسيحية والإسلام الذي امتد قروناً بما فيه هذا البعد نفسه ، وحكي كذلك عن أحداث الحروب العربية البيزنطية ، وألوان الصدام الأخير في فلسطين وإسبانيا . وربما أكثر ما يميزه عنه يبدأ فكرته بمناقشة مختصرة عن غزاة البلد ، التي رغم ذلك لا تذهب إلى ما هو أبعد من النطاق المحدود للمعرفة الجغرافية المتاحة .

أما ما قاله عن أوروبا فقليل ، والجزء الثاني يتعلق أساساً بالشعوب غير الإسلامية وشعوب ما قبل الإسلام ، بما في ذلك الجزيرة العربية قديماً وبابل القديمة ومصر وإسرائيل (\*) وفارس وبلاد اليونان وروما وبيزنطة ، ويذكر فقط القوط الغربيين ، ونبذة

(\*) يعمد برنارد لويس في هذا الموضع إلى ذكر إسرائيل كوطن ، ولا يذكر فلسطين . والأغلوطة هنا واضحة إذ أن إسرائيل كدولة لم تظهر سوى عام ١٩٤٨ ، أما بنو إسرائيل فهو شعب توزع في العالم القديم بين مختلف الشعوب .

مختصرة عنهم ضرورة كمقدمة لفتح المسلمين لإسبانيا ، وهي كذلك جزء من التقليد التاريخي الجغرافي الخاصة بالعرب الإسبان . ولم يمتد تاريخ ابن خلدون العام إلى شمال إسبانيا أو شرق فارس ، وهكذا يمكن أن نقول إن تاريخه كان مقتصرأ على حضارته الخاصة به وبأسلافه ، وهكذا فإن هذا التاريخ يشبه معظم ما يسمى بالتاريخ العام الذي كتب في العالم الغربي حتى الماضي القريب .

ولكن قبل ذلك بقرن تقريباً في الشرق في بلاد فارس قامت محاولة لتقديم تاريخ عام حقيقي يغطي سائر العالم المأهول بالسكان ، كما كان معروفاً آنذاك ، محاولة كانت غير مسبوقه وكانت لفترة طويلة محاولة لا مثيل لها . وقد جاءت الفرصة المناسبة من الفتوحات المغولية التي قامت لأول مرة في التاريخ بين آسيا الشرقية وآسيا الغربية ، في نظام سلطة واحدة قامت ووضعت حضارات الصين وفارس ، في اتصال مقرب ومثمر .

وفي السنوات الأولى من القرن الرابع عشر . . دعا غازان خان الحاكم المغولي في فارس طبيبه ومستشاره رشيد الدين ، اليهودي الذي اعتنق الإسلام ، ليعد تاريخاً عاماً للبشرية يضم كل الشعوب والممالك المعروفة . ويضع العمل الجديد رشيد الدين بين أعظم المؤرخين في الإسلام ، وفي واقع الأمر في البشرية كلها . وهو عمل تبدو فيه مراعاة الضمير بطريقة مؤثرة واضحة بالنسبة للتاريخ الصيني استشار اثنين من علماء الصين ، جاءوا إلى فارس خصيصاً لهذا الغرض . وبالنسبة لتاريخ الهند استدعى . . زاهد "بوذي من كشمير . وفي عمل تاريخي بهذا الحجم الكبير . . نجد حتى برابرة غرب أوروبا يحظون بوصف مختصر في هذا العمل ، وكثير منهم حدث معه ذلك منذ أن كانوا في مفاوضات سياسية مع سيد رشيد الدين . إن معرفته عن أوروبا وشؤونها تبدو كمعرفة أحد الإيطاليين ، وربما كان أحد مبعوثي البابا ، ثم بعد ذلك داوم على ساحات المغول . وعن طريقه قام رشيد الدين بالاطلاع على عصور التاريخ الأوروبية التي حققت أخيراً ، مثل تحقيق العصر الخاص بالقرن الثالث عشر ، الذي قام به المؤرخ مارتن والمعروفة كذلك- على رغم أنه من أصل تشيكي- باسم مارتينوس بولونوس<sup>(٢٧)</sup> .

والجزء الذي كتبه رشيد الدين عن الإفرنج ينقسم إلى جزئين : الجزء الأول يتكون

من مسح جغرافي وسياسي للدول والبلدان الأوروبية . والجزء الثاني يتكون من التاريخ المختصر للأباطرة والبابوات ، ولقد استفاد رشيد الدين بشكل واضح من الكتابات العربية والفارسية المبكرة عن أوروبا ، غير أن كثيراً من معرفته جديدة ، ولم تطرق من قبل . وفكرته عن علاقات البابا والإمبراطور تم تفصيلها ، وهي تأتي بوضوح من بعثة باباوية . وكانت لديه معرفة مناسبة باحتفالات التتويج الإمبراطوري ، ولقد سمع عن صوف إنجلترا القرمذي ، وعن جامعات باريس وبولونيا ، وعن بحيرات البندقية وعن جمهوريات إيطاليا واختفاء الثعابين من أيرلندا . وكل هذا يمثل تقدماً ملحوظاً في المعرفة ، وحتى عبارته الغامضة بأن حاكم الجزيرتين (أيرلندا وإنجلترا) يكون اسكتلنديا ، وأنهما يبعثان بالجزية إليه ربما يكون فيها شيء من الحقيقة .

إن تأريخه للأباطرة والباباوات ينتهي بالإمبراطور ألبرت الأول والبابا بيندكت الحادي عشر ، وكلاهما يوصف بطريق صحيح ؛ حيث كانا يعيشان في ذلك العصر . وهذا لا يتضمن أكثر من اختصار لمارتن الراجع إلى هذا التاريخ . وفكرته عن أوروبا واهية وسطحية وأحياناً غير صحيحة ، وبالمقارنة بينها وبين معالجته الطويلة والمملة للحضارات الأخرى "مثال حضارة الهند والصين ، فإن هذه الفكرة تبدو شيئاً تافهاً ، ولكن بعد القائمة القصيرة الخاصة بحلول الفرنجة ، التي قدمها المسعودي يبدو أن هذه هي الحالة الوحيدة التي قام بها مؤلف إسلامي في العصور الوسطى ليحدد معالم تاريخ أوروبا المسيحي ، ولم تتم المحاولة الثالثة إلا في العصور العثمانية في القرن السادس عشر . وخلال فترة العصور الوسطى ظل الإسلام يهمل ولا يهتم بالشعوب الكافرة أو بماضيها ، تلك الشعوب التي عاشت في الأراضي الواقعة إلى شمال البحر المتوسط . والشيء المميز الملاحظ هو أن مفكراً عظيماً وأصيلاً مثل ابن خلدون نفسه - وموطنه تونس إحدى البلاد المسلمة التي على دراية كبيرة ومباشرة بالغرب - شارك في هذا الإهمال العام . وأثارت المناقشة العظيمة للصليبيين ، الواضحة جداً في التاريخ الغربي ، موجة من الغموض في البلاد الإسلامي . وحتى التطور السريع للعلاقات التجارية والسياسية مع أوروبا بعد الصليبيين ، يبدو أنه لم يشر أي رغبة في التوغل في

أسرار الجانب الآخر . وبينما كانت البلاد الإسلامية القديمة في إسبانيا والشرق تتدهور وتتساقط تحت الحكم الأجنبي ، كانت تنشأ في الأناضول إمارة كانت تنمو سريعاً على حساب الإمبرطوريات الإسلامية الأخيرة والعظيمة جميعها . والدولة العثمانية ولدت على الحدود بين الإسلام والمسيحية ومن البداية وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا قد كرسوا بكل قلوبهم للإسلام أكثر من أي من الأسلاف ، فقد كانت لهم معرفة أكثر علماً وأكثر تقارباً على الأقل مع بعض مناطق أوروبا المسيحية . وبالنسبة للعثمانيين المتقدمين لم تعد أوروبا الإفرنجية لغزاً غامضاً كما كانت بالنسبة للعرب والفرس في العصور الوسطى . لقد كانت جارتهم وغريمهم بعد أن حلت محل الإمبراطورية البيزنطية المنهارة كرمز للمسيحية ، الغريم والخصم الأصيل لموطن الإسلام . وكان أساسياً أن يعرف الأتراك فنون الحرب الأوروبية ويتعلمونها . وفي التعليم البحري بصفة خاصة اتبعوا الأساليب الغربية ، ولم يقوموا حتى بتحسينات قليلة من عندهم . وعن طريق الفنون البحرية الأوروبية كانوا يحتاجون كذلك إلى معرفة عملية بالخرائط والبحرية الأوروبية (١٥٥م) هو بييري ريس ، الذي يبدو أنه كان يعرف بعض اللغات الغربية ، ويبدو أنه استغل المصادر الغربية . وفي ١٥١٧م كان قد قدم خريطة للعالم إلى السلطان سليم الأول كانت تتضمن نسخة لخريطة كولومبوس لأمريكا التي رسمت ١٤٩٨م . ولما كانت خريطة كولومبوس الأصلية قد فقدت ، فإن هذه الخريطة التي ربما ضاعت في إحدى الهجمات البحرية العديدة مع الإسبان والبرتغاليين ، بقيت فقط في الترجمة التركية التي ما زالت موجودة في مكتبة مصر توبكابي في اسطنبول ، وتبع ذلك ١٥٨٠ فكرة اكتشاف العالم الجديد على ما يبدو من المصادر الأوروبية لجغرافي عثماني هو محمد بن حسن سعودي ، وأهداه إلى السلطان مراد الثالث (٣٠) .

وهناك كاتب عن البحرية التركية في البحر المتوسط ، ألف عام ١٥٢١ ، أعيد تنقيحه سنة ١٥٢٥ ، يحتوي على تعاليم بحرية تفصيلية لسواحل البحر المتوسط . والنسخة المنقولة سنة ١٥٢٥ تتضمن مقدمة وفهرساً يعطيان فكرة عن المعرفة الجغرافية ، والتصورات الجغرافية التي كان يستخدمها عندئذ الأتراك . وخريطة متأخرة ترجع إلى

عام ١٥٥٩ ، يبدو أن راسمها حاجي أحمد من تونس ، وهو الذي درس في جامعة مسجد الطرابيشي في مراکش ، وكان فيما بعد ذلك أسيراً في أوروبا ، وربما كان في البندقية ، وعلى أي حال . . فهناك أعد خريطته التركية في تغطية أوروبا وآسيا وأفريقيا والمناطق المعروفة من أمريكا . وهو يعطي كذلك بعض التفاصيل عن نفسه التي يظهر منها أنه جهز خريطته أثناء أسر "رجل فاضل ومتعلم" ، وعندما يصف كتابه يقول : "لقد قمت بإنتاج جديد لكتابة المسلمين بترجمة اللغات الإفرنجية والكتابات الإفرنجية" لقد وعدوا بتحرير لقاء جهودي وأعمالي التي تعجز مثل هذه الكلمات عن وصفها . . . ولقد كتبت ذلك ( أو ربما فصلته ) باللغة التركية بطريقتي وفقاً لأوامر سيدي ؛ لأن هذه اللغة لها سلطة عظيمة في العالم" (٣١) . وأول الأعمال الجغرافية الكبرى الخاصة بالعثمانيين بصفة عامة (Jihannüma) أي (مرآة العالم) وهو خاص بالجغرافي كاتب جلبي Katib Celebi الذي يخبرنا في مقدمته بأنه فقد الأمل تقريباً على القدرة على تأليف جغرافية عامة جامعة ، عندما أدرك أن الجزر البريطانية وأيسلندا ، لا يمكن وصفها بغير الرجوع إلى الأعمال الأوروبية ، طالما هذه الأعمال كلها المتاحة له بالعربية والفارسية والتركية غير مكتملة وغير دقيقة ، وهو يقول إنه ناقش من خلال وسطاء جغرافية أورتيلوس والاطلس (الأصغر والأكبر) وأطلس ميركاتور في الوقت الذي كان يأمل فيه أن يجد نسخة من أورتيلوس "كان حظه طيباً في أن يجد الأطلس الأصغر وهو اختصار للأطلس الأكبر ، وفي الوقت نفسه . . كان حظه طيباً أن يعرف الشيخ محمد إخلاصي ، وهو راهب فرنسي سابق اعتنق الإسلام ، وبمساعدة الرجل الفرنسي بدأ في ترجمة الأطلس الأصغر وأكماله في سنة ١٦٥٥" (٣٢) .

وعند نهاية القرن . . ظهر كاتب آخر في الجغرافية ، وهو أبو بكر ابن بحرام الدمشقي (١٦٩١م) ، وكان متمتعاً بمزايا الوزير فازيل أحمد باشا ، عمل في الأجزاء المختلفة من مرآة العالم الخاصة بكاتب جلبي وأضاف هو نفسه بعض المواد إليها . وأما عمله الأكبر فهو ترجمة الأطلس الأكبر الخاص بجوان بلو . ويبدو أن الدمشقي قد اهتم أساساً بجغرافية بلو - بنسبة أقل - وبهندسيته . ومن الواضح أن فكرته عن النظريات

الكونية الخاصة بتيكوبراهسي وكوبرنيكوس قد اختصرت إلى جملة هي "هناك نظرية أخرى تبعاً لها ، تكون الشمس مركز العالم والأرض تدور حولها" (٣٤) .

وأن الاتجاه الذي بدأ به عمل كاتب جلبي والدمشقي استمر في القرن الثامن عشر . وتظهر عدة أعمال جغرافية أخرى تقريباً في صورة توابع أو ملاحق لمرآة العالم (Jihannuma) وهناك عمل ينسب بأرمني له أهمية ما ، وهذا الأرمني هو بدروس - باروينان الذي كان يعمل ترجماناً لبعثة بلاد الأراضى المنخفضة (هولندا) وفيما بعد عمل ترجماناً لوفد مملكة الصقليتين ، ويقال إنه أعد ترجمة تركية لعمل فرنسي كتبه جاك روبس بعنوان "طريقة لفهم الجغرافية بمدخل سهل" (٣٥) والأدب على الرغم من أن له اهتماماً يبدو أن احتكاكه محدود . وهناك شك فيما إذا كان البحارة الأتراك قد عرفوا كثيراً عن البحر المتوسط . وفي سنة ١٧٧٠ عندما أبحر أسطول روسي حول أوروبا الغربية ، وواجه بغتة القوات العثمانية في بحر إيجه ، عقدت الدولة العثمانية اتفاقية صورية مع ممثل البندقية ، يشكون من أن حكومته قد سمحت للأسطول الروسي بالإبحار مع البلطيق إلى الأدرياتيك . وهذا يشير إلى صفة خاصة ببعض خرائط العصور الوسطى ، التي تبين وتوضح قناة بين هذين البحرين مع آخر حدودهما في البندقية . وعلى الرغم من أن كاتب جلبي وتلاميذه قد عرفوا جيداً هذه الأمور ، وأن مرآة العالم (Jihannuma) كانت بالفعل قد طبعت . . فإن الموظفين في بورت ، كان من الواضح أنهم لا يزالون يهتدون بالتصورات الجغرافية ، التي ترجع إلى العصور الوسطى .

ويشير المؤرخ العثماني واصف الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر إلى أن الوزراء العثمانيين لم يستطيعوا أن يدركوا أن هناك طريقة ما للأسطول ؛ كي يتجه من بيتربرج إلى البحر المتوسط" (٣٦) .

يخبرنا المترجم والمؤرخ النمساوي جوزيف هامير بتعبير مشابه أو مقارب للشك هو "تحت بصري" في سنة ١٨٠٠ عندما رفض الوزير العظيم ليوسف زيا أن يصدق أن الإمدادات البريطانية يمكن أن تأتي من الهند عن طريق البحر الأحمر . ويعقب هامير

فيقول : كانت لدى السيد سيدني سميث الذي ساعدته مترجماً أثناء هذه المقابلة ، كل متاعب العالم ومشكلاته ؛ لكي أؤكد له بفحص الخرائط أن هناك علاقة واتصالاً بين المحيط الهندي والبحر الأحمر<sup>(\*)</sup> .

ويقدم تاريخ أوروبا الحديث وأمريكا الشمالية أمثلة ، تعادل ذلك من الناحية التراجيدية على الجهل الجغرافي حول دور السياسيين وحتى رجال الدولة . ومثل هذا الجهل مع ذلك على الرغم من أنه كان موجوداً بين الحكام أحياناً . لم يكن سمة الصفوة السياسية ، وقد صحح هذا الجهل عن طريق خدمات مدنية أحسن تدريبها وتعليمها .

ومن الجغرافية البشرية لأوروبا - التي كانت شعوباً مختلفة عاشت في البلاد ، التي لاحت في الأفق العثماني - كانت هناك معرفة قليلة في الأدب العثماني ، وهناك استثناء ظريف لشخص يدعى مصطفى علي من مدينة كليولي<sup>(\*)</sup> (١٦٠٠-١٥٤١) مؤرخ شهير ، وشاعر متعدد الجوانب في عصره . وعلى الأقل في موضوعية .. يحاول مصطفى علي في نوع من علم الأجناس الأوروبي في الجزء الخامس من كتابه عن التاريخ العام ( الجامع ) الذي لا يتضمن أوروبا ، أن يقدم استطراداً مطولاً في الأجناس المتشابهة مع العثمانيين ، في داخل وخارج حدودهم .

وتنصب فقرة أخرى مساوية للفقرة السابقة في عمل آخر لمصطفى علي ، يناقش فيها النماذج المختلفة للعبيد والخدم وأنواع السلالات وطبائع الشعوب التي يتمتعون إليها . وقد تعلم مصطفى علي بطبيعة الحال أحسن تعليم عن الأجناس داخل الامبراطورية ، وهو يعكس بشكل كبير التمييز المعروف لصاحب العبيد . وتقع حسن الاخلاق والكرامة من الألبانيين ، والولاء من الأكراد ؛ فهذا أمر يشبه توقع توقف

(\*) كليولي مدينة تطل على مضيق الدردنيل ، وتقع على شاطئه الغربي في شبه جزيرة كليولي ، وهي عبارة عن شبه جزيرة تقع في الجزء الأوروبي من الأراضي التركية وعمر الدردنيل ، وهو المر الذي يصل بحر مرمره بالبحر المتوسط ، وكانت المدينة في الماضي ميناء مهماً ، وهي الآن أحد مراكز الصيد الصغيرة ، وبها حامية عسكرية ، وكانت أيضاً مسرحاً للحملة العسكرية الشهيرة باسمها في الحرب العالمية الأولى . (المترجم) .

صياح الدجاج التي تفقس البيض ، وكذلك من غير الممكن لعبدة روسيا ألا تكون عاهرة ، أو لفارس من جنوب روسيا ألا يكون سكيراً ، ويفكر مصطفى على في السلافين البلقان أما البوسيناك وخاصة الكروات فشعب محترم . ومن بين الأوروبيين الآخرين .. يذكر فقط المجرين والإفرنج والألمان ، والإفرنج والمجريين - إلى حد ما - يشبه أحدهما الآخر ، ويتميزون بالنظافة في عاداتهم الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس ، وملحقات المعيشة المنزلية . وهم كذلك على استعداد للفهم والإدراك السريع ، ويتميزون كذلك برشاقة الحركة . ومع ذلك .. فإنهم يميلون إلى الالتواء والحيلة ، ويحترمون اكتساب الأموال . كذلك فالنشأة الطيبة والكرامة صفات يوليها مصطفى علي اهتماماً ، هي صفات متوسطة . ومع ذلك .. فإنهم كانوا قادرين على الحوار المتصل البناء ، وبينما كان أغلبهم يتميز بجمال وذكاء الشكل .. فإن قليلاً منهم هم الذين يتمتعون بصحة جيدة ، والكثير منهم ثقله ألوان المرض المختلفة . وأجناسهم الطبيعية متنوعة ، يسهل تفسيرها . وكانوا قادرين بشكل كبير على ممارسة التجارة . وعندما يجتمعون للشراب والمسامرة .. فإنهم يستمدون سعادتهم ويأخذونها بحكمة . وكلهم كما يقول مصطفى على أناس يتميزون بالأناقة . والألمان من ناحية أخرى كانوا يتميزون بالعناد ، ومطبوعون على الشر ، ومهرة في الحرف اليدوية وما يشابهها . ويتميزون بثقل اللسان وبطء الحركة . وقليل منهم دخل الإسلام هم يفضلون الإصرار على كفرهم . ومع ذلك .. فهم مقاتلون ممتازون سواء في الفروسية أو المشاة (٣٨) .

وبطبيعة الحال .. كان مصطفى علي يكتب من نقولات (شائعات) . وبعد نصف قرن حاول ألييا جلبي عقد مقارنة بين أهل المجر أهل النمسا قائمة على الملاحظة المباشرة . ويلاحظ ألييا أن المجرمين كانوا قد أضعفتهم الغزوات العثمانية في القرن السابق ، وهؤلاء الذين لم يهزمهم الأتراك سقطوا تحت سيطرة النمساوية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد اعتبرهم أسمى بكثير من النمساويين الذين في نظره لا يجبون الحرب ، "إنهم تماماً مثل اليهود ، وليس لديهم جلد في القتال " والمجريون هم أفضل شعب .

"وعلى الرغم من أنهم فقدوا قوتهم ، فإنهم ما يزالون أصحاب الموائد العظيمة

الكرماء مع ضيوفهم ، وهم قادرون على الزراعة في أراضيهم الخصبة . وشأنهم شأن التتار ، يركبون الخيل أينما ذهبوا ، ومعهم من خمس إلى عشر ما يشبه المسدسات ، كذلك بالسيوف والدروع ، وفي واقع الأمر . . فإنهم يبدون مثل جنود الحدود يرتدون نفس زيهم ، ويركبون نفس الخيول الأصيلة ، ويتميزون بالنظافة في أساليبهم وفي مآكلهم وتكريم ضيوفهم . إنهم لا يعذبون أسراهم كما يفعل النمساويون ، ويتدربون على لعبة السيوف مثل العثمانيين . باختصار فعلى الرغم من أن الجانبين كفرة بغير إيمان ، فإن المجريين كفار أكثر احتراماً ونقاءً ونظافة . إنهم لا يغسلون وجوههم كل صباح ببولهم كما يفعل العثمانيون <sup>(٣٩)</sup> . ولو أن الكفار الحاليين قدموا قليلاً من القيمة ، فإن كفار الماضي قدموا أقل من ذلك ، ولم يشغل المؤرخون العثمانيون أنفسهم عادة بتاريخ أوروبا . ومع ذلك فهناك وميض من الاهتمام ، إذا صدقنا التأريخ العثماني المبكر بالاستيلاء على المدينة العظيمة التاريخية القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، الذي أثار قليلاً من الغموض حول ماضي المدينة .

"بعد أن هزم السلطان محمد قسطنطين نظر إلى آيا صوفيا في دهشة ، وسأل شعب الروم وشعب فرنجستان والرهبنة والبطارقة وكذلك هؤلاء الرومانيين والإفرنج الذين عرفوا تاريخهم ، وأراد أن يعرف من الذين بنى مدينة القسطنطينية ، ومن الذي كان يحكم هناك ، ومن الذين كانوا ملوكها . . جمع السلطان الرهبان وأناساً آخرين من الروم والإفرنجية الذين عرفوا التاريخ ، وسألهم "من الذي بنى مدينة القسطنطينية هذه ؟ ومن كان يحكمها ؟ ومن جانبهم أفادوا السلطان محمد علي قدر معرفتهم من كتبهم التاريخية ومن المعرفة التي تلقوها" <sup>(٤٠)</sup> .

ومن الواضح أننا لا نعرف من يكون هؤلاء الرهبان والمؤرخين والإفرنج واليونانيين الذين استشارهم السلطان ؛ والذي سجل عن تاريخ المدينة قبل العثمانيين تاريخاً خيالياً تماماً ، وليست له أي علاقة بتاريخ هذه المدينة اليونانية والرومانية والبيزنطية ، واهتمام السلطان محمد بالتاريخ المبكر للمدينة ، ولم يطرقة الكتاب اليونانيون والإيطاليون بشكل مستقل ، وبعضهم في وقت واحد أو وقت آخر . واهتمامه مع ذلك يبدو أنه غريب وفريد ، وعلى أي حال . . لم يترك أثراً في التاريخ الجغرافي العثماني .

إن أول الأعمال التاريخية التركية عن أوروبا الغربية ، هو ما كتب في القرن السادس عشر المتأخر أنه يتكون من تاريخ فرنسا المؤسس الأسطوري فاراموند إلى سنة ١٥٦٠م ، وتبعاً للبيانات المذكورة في نهاية هذا العمل . . فقد علم أنه ترجم إلى اللغة التركية بأمر الباي فيردون الذي احتفظ بوظيفة السكرتير الرئيس للوزير الأعظم من ١٥٧٠م إلى ١٥٧٣م ، ونفذ هذا العمل رجلان ، كان أحدهما المترجم حسن بن حمزة ، وكان الآخر الناسخ علي بن سينان . واكتملت الترجمة ١٥٧٢م ، وحيث إنها بقيت في مخطوطة واحدة ، وكان هذا في ألمانيا . . فمن الواضح أن هذا العمل لم يثر اهتماماً كبيراً بين القراء الأتراك .

وخلال القرن السابع عشر . . كانت هناك علامات تغيير وقليل من المؤرخين الأتراك والعلماء الآخرون يظهرون اهتماماً بأوروبا وكذلك بعض المعرفة بالمصادر الأوروبية . فهناك شخص يدعى إبراهيم مولهمي (١٦٥٠) يقال إنه كتب تاريخ ملوك الرومان والإفنج ، ولم تظهر أي نسخة باقية من هذا التاريخ . وقد كتب معاصره المشهور كاتب جلبي الذي كرس اهتمامه بأوروبا في أعماله أيضاً في التاريخ ، وهو يذكر في أحد أعماله ترجمة "التاريخ الإفنجي للملوك الكفار" ، وعلى الأقل بقيت نسخة واحدة من هذه الترجمة في ملكية خاصة في تركيا وطبعت أجزاء من هذه الترجمة في صورة مسلسل في جريدة تركية في ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ، وفي المقدمة يعدد كاتب جلبي مصادره ، ويسميه التاريخ اللاتيني الخاص . استخدم جوهان كاريون (١٤٩٩ - مارتن لوثر) كثيراً من الدعاية البروتستانتية ، ربما كان من الممكن أن يشير إلى كاتب جلبي رغم التعاون الفرنسي ، ثم وصفه به باعتباره راهباً سابقاً . . فإن له خلفية بروتستانتية وليست كاثوليكية .

بالإضافة إلى هذه الترجمة فإن كاتب جلبي كتب عملاً أصلياً عن أوروبا ، الذي بقي فقط في مخطوطة وأوضح ذلك في بداية هذا الفصل ، وكان غرضه كما يشرح أن يعطي المسلمين معرفة دقيقة يحتاجونها كثيراً عن شعوب أوروبا ، وعلى الرغم من هدفه هذا ، فإن مقالته تساعد في فهم كلمات السيد فيكتور ميناج ، وبتفاهتها الشديدة فإنها

عبارة عن فهرس للجهل الأوروبي الذي انتشر في يومه بين الرجال العثمانيين المختصين بالتعليم<sup>(١١)</sup> .

في تلك الأثناء . . كان هناك اهتمام قليل بالتاريخ الغربي ، على الرغم من أن ذلك كان في مستوى منخفض ، ويبدو أن هذا الاهتمام قد تزايد نوعاً في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، عندما نتج نوع جديد من المجتمعات في المدن حول اسطنبول . واستطاع العلماء الأتراك عندئذ مواجهة المسيحيين العثمانيين المتحدثين بالتركية وحتى الأوروبية ، وكان عليهم أن يتعلموا شيئاً عن العلم والمعرفة الغربية ، ومفتاح ذلك الأمير الروماني ديمتريوس كانتيمير الذي كان وطنه كل من المجتمع العثماني والمجتمع الأوروبي ، وهو نفسه مؤلف تاريخ الإمبراطورية العثمانية . إن هذه المواجهات مع ذلك كان لها نطاق مجدد ، ويبدو أنه كان لها تأثير طفيف على التصور العثماني العام للعالم الخارجي . وأحد الاستثناءات هو مؤرخ معروف قليلاً من القرن السابع عشر المتأخر ، يدعى حسين حيزارفن (١٦٩١) الذي ما زالت معظم أعماله غير منشورة ، وشأنه شأن كاتب جلبي الذي يذكره بإعجاب ، كان رجلاً يحيطه غموض كبير ويهتم بالجغرافيا والتاريخ المتعلقين بالأراضي البعيدة ، بالإضافة إلى التاريخ القديم لبلاده ، ومن المعروف أنه تعلم مع مثل هذه الشخصيات مثل الكونت فرديناند مارسيجلي وأنطوان جالاند ، وربما يكون قد عرف كانتيمير والمستشرق الفرنسي العظيم Petis de La Croix وربما في جزء من مكاتب ومعارف هؤلاء الأوروبيين الآخرين ، كان حسين حيزارفن قادراً على التوصل إلى أسرار الكتب الأوروبية والاستفادة منها والاستعانة ببعضها في أعماله الخاصة وأحد هذه الأعمال : "تاريخ التاريخ" ، وقد اكتمل الكتاب عام ١٦٧٣ ، وهو عمل تاريخي مقسم إلى تسعة أجزاء ، السادس والسابع والثامن والتاسع منها يتعلق بالتاريخ الخارج على الفترة الإسلامية وإسلاميها المعروفين ، وهذه نسبة مميزة بدرجة عالية . ويتعلق الجزء السادس بالتاريخ اليوناني والروماني ، والجزء السابع يتعلق بتاريخ مدينة قسطنطين منذ تأسيسها ، ويتعلق الجزء الثامن بأسياذ الصين والفلبين وبشرقي الهند وسيلان ، ويتعلق الجزء التاسع باكتشاف أمريكا ، وندش لأن حسين حيزارفن لم

يضمن أوروبا في عرضه ، ولكن أوصافه لكل من آسيا وأمريكا تقوم تقريباً بشكل تام على المصادر الأوروبية ومعظمها جاء عن طريق مرآة العالم (Jihannüma) الذي دونه كاتب جلبي .

إن أفكاره عن التاريخ اليوناني والروماني والبيزنطي مستمدة أيضاً من المصادر الأوروبية التي ساعدت على مناقشة جانب من المعرفة الإسلامية الكلاسيكية القديمة (١٣) .

ونعود إلى التاريخ العام في أسلوبه العظيم بذلك العمل الخاص بأحمد به لطف الله ، المعروف باسم Münej Imbasi الفلكي الأكبر (١٧٠٢) ، ونذكر أن عمله الأكبر هو تاريخ عام البشرية من آدم إلى عام ١٩٧٢ م ، وهو كما يخبرنا يعتمد على سبعين مصدراً . وقد اختار Münej Imbasi أن يكتب عمله باللغة العربية ، وفيما عدا قليل من الاستثناءات . . فإن النص الأصلي لم يطبع بعد كاملاً ، ومع ذلك فإن الترجمة التركية المعدة خلال أوائل القرن الثامن عشر على يد الشاعر التركي العظيم نديم Nedim طبعت في اسطنبول في كتب ثلاثة ١٨٦٨ . وأعظم جزء في الكتاب كما قد نتوقع هو ماكرسه للتاريخ الإسلامي ، ويتعلق الجانب الأساسي من الكتاب الأول مع ذلك بتاريخ ما قبل الإسلام والبلدان غير الإسلامية .

الأول يتضمن كالعادة الفرس والعرب القدامى من ناحية ، والإسرائيليات والمصريات القديمة من ناحية أخرى ، يناقشهم في سطور تقليدية تكثر وتقل .

ويذهب تاريخ Münej Imbasi القديم إلى ما وراء النطاق الإسلامي العام ، ومن الواضح أن أفكاره عن الرومان واليهود مصادرها رومانية ويهودية . وكانت هذه المصادر في جانب منها متاحة بالفعل في التطبيق العربي لابن خلدون ، مع ذلك فإن معرفته أكثر قدراً من معرفة المؤرخ العظيم في شمال أفريقيا ، وتتضمن وحدات مثل الآشوريين والبابليين والسلوقيين ، والبطالمة المعروفين من قبل بشكل واضح للمؤرخ الجغرافي الإسلامي . ومن الواضح أنه لا بد وأنه استخدم مصدراً أوروبياً لهذه الأفكار ، ويصبح

ذلك مؤكداً في فصل Münej Imbasi عن أوروبا ذلك الفصل الذي يتضمن أقساماً عن تقسيمات الشعوب الإفريقية ، وكذلك عن ملك فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإنجلترا . ويبدو أن مصدره كان الترجمة التركية لتاريخ جوهان كاريون Johan Carion رغم أنه منذ أن استمر Münej imbasi في روايته عن فترات لويس الثالث عشر الملك الفرنسي والإمبراطور ليوبولد Leopold في ألمانيا وشارل الأول في إنجلترا ، لا بد من أنه كانت له مادة ملحقة تحت تصرفه . وهو يحكي عن الحرب الأهلية الإنجليزية وإعدام الملك شارل ، وهو ينتهي إلى القول التالي : "وبعد لم يعين الشعب الإنجليزي ملكاً آخر عليه ، وليست لدينا معرفة أكثر من ذلك عن شئون هذا الشعب" (11) .

والكتاب : كاتب جلبي وحسين حيزارفن و Münejj Imbasi يمدون التاريخ الجغرافي العثماني بأسره في غرب أوروبا ، إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ومعرفتهم ضئيلة وتأتي أساساً من نفس مجموعة مصادر المعرفة .

حتى هذه الدرجة المحددة من الاهتمام ناقصة عند الكتاب العثمانيين الآخرين ، وبالنسبة لمعظم المسلمين العثمانيين . . فإن الإنجازات الأوروبية الجديدة بالانتباه إليها كانت في فنون الحرب ، ويمكن دراسة تلك الفنون من خلال البنادق والسفن ، التي تم الاستيلاء عليها بمساعدة الأسرى ومعتنقي الإسلام حديثاً ، إن للغات والآداب والفنون والفلسفات الأوروبية كان يمكن أن يكون بها اهتمام أو لها ضرورة لم تغز عقولهم ، ومثل هذه الحركات الأوروبية المتعلقة بالأفكار من فعل حركات المسلمين الفكرية في أوروبا في ذلك الوقت .

هذه الكتابات كرسست لأوروبا ، وعندئذ . . فإن شعوبها وشئونها ذات أهمية ضئيلة ، وإنها تبقى في نسخ قليلة ، وأحياناً في نسخة واحدة فقط ، والجزء الأكبر منها غير مطبوع . إن اتصالهم بالفكر العثماني ، لا بد أنه كان اتصالاً طفيفاً ، ويمكن جمع فكرة أفضل للتصور العثماني لأوروبا من مجموعة المؤرخين العظام ، وكان بعضهم يحتل مرتبة Vakanüvis أو المؤرخ الجغرافي الإمبراطوري ، والبعض الآخر غير موظف ، وهؤلاء المؤرخون معاً أنتجوا مجموعة كتابات تاريخية تغطي تاريخ

الإمبراطورية من منشأها إلى نهايتها ومعظمها كتابات طبعت في تاريخ قديم نوعاً ، وباختصار . فإنها تضمنت التأثير الأكثر أهمية على إدراك العثمانيين لأنفسهم ومكانتهم في العالم والتفاصيل الأخرى .

وبينما كان المؤرخون العثمانيون ، مثل هؤلاء المعروفين للتاريخ على أنهم من مجتمع فاضل . بينما كانوا يهتمون أساساً بشئونهم الخاصة . . فإن هؤلاء أيضاً قد وضعوا بعض الأمور المتعلقة بأوروبا في الحرب والتجارة والسياسة ، وأمور أخرى تشبه ذلك إن مثل هذه الاحتكاكات نجد تعبيراً مناسباً لها في الأدب العثماني التاريخي ، الذي تعكس صفته تغيرات القرون التالية .

وخلال فترة التقدم العثماني العظيم داخل أوروبا في القرن الخامس عشر كان التاريخ الجغرافي العثماني ما يزال قليلاً نوعاً ما ، ويتكون أساساً من الروايات البسيطة المكتوبة باللغة التركية البسيطة ، وتعكس النظرة العامة والتطلعات والمقاتلين المسلمين على الحدود . إنهم يرون الأوروبيين بادئ ذي بدء أعداء ثم بعد ذلك رعايا يدفعون الجزية ، ويظهرون معرفة قليلة واهتماماً بسيطاً حول ما يحدث على الجانب الآخر من خطوط القتال . ومع ذلك فهم يعرفون أنهم يواجهون الآخرين بجانب خصومهم المسيحيين ، وكلمة إفرنج Frank لا تأتي بصفة متكررة في قوائم الأعداء الذين تمت مواجهتهم والتغلب عليهم .

وفي الكتابات العثمانية الأولى . . تظهر هذه الكلمة لتدل على الإيطاليين ؛ خاصة أهل البندقية الذين التحم معهم الأتراك أثناء امتدادهم إلى اليونان وجزر البحر المتوسط الشرقية . وبطبيعة الحال . . كان الأفرنج دائماً يهزمون ويمدون المنتصرين بغنائم عظيمة .

وفي وصف نصر تم سنة ٩٠٣ / ١٤٩٧م أعد المؤرخ العثماني القديم Ourc قائمة بالمقادير الضخمة التي سلبت من الإفرنجة المهزومين من العملات الذهبية والفضية وفرور القاقم ، وأنواع أخرى ومن الحرير والساتان والمنسوجات المرصعة بالذهب والفضة " لقد

وجدوا هذه الأشياء واستولوا عليها بكميات لا حدود لها ، حتى أن أحداً لم يعبا أو يهتم بالعربات أو الخيول أو الجمال أو الأسرى . وكذلك تم أسر عدد هائل من الأسرى يفوق الحصر " والأوقات التي عثر فيها على مثل هذه الغنائم الرائعة هي فقط كما يقول Ourc في الجهاد في فارنا (١٤٤٤) وفي كوسوفا (١٣٨٩) وفي غزو مدينة القسطنطينية (١٤٥٣) " أو هكذا كما يقال " ويستمر في عرض ملاحظاته فيقول إن أغنى شعبين في العالم هما الشعب البولندي والإفرنجية " أغنى من أي شعوب أخرى في البضائع العالمية لذلك فهم يقدمون غنائم هائلة إلى المقاتلين المؤمنين " (١٥) .

وهناك نظرة سوفسطائية عن أوروبا أبعد من أن تقع في تاريخ أو وثيقة ، ولكن في الشعر الملحمي أو في القصيدة الملحمية التي كتبت في بداية القرن السادس عشر ، وتسجل هزيمة الحملة البحرية الأوروبية ضد الأتراك والمقدمة في حد ذاتها صغيرة . إن القوات التركية استولت على مودون وعلى مواضع أخرى على الساحل اليوناني . ونجح أهل البندقية في جلب الدعم من أجزاء عديدة في أوروبا ، وفي أثناء الحرب شنت حملة بحرية فرنسية مع بعض الحلفاء هجوماً على الأتراك المقيمين في جزيرة ليسبوس Lesbos في نهاية شهر أكتوبر ١٥٠١ ، وصُدت الحملة وأعطت المناسبة فرصة ظهور قصيدة روائية تمجد الانتصار التركي ، والشاعر الذي حصل على لقب فردوس التركي (بعد شاعر الملاحم الفارس العظيم الفردوسي ) يشرح أن غزو الأتراك لمودون قد تسبب في قلق شديد بين الإفرنجية ؛ خاصة عند زعيمهم رن باب Rin-Pap المعروف بأنه البابا في روما ، وعندما غزا السلطان بايزيد مودون يقول الشاعر أن الإفرنجية كانوا خائفين ومفزوعين جداً من سيفه ، حتى أن الجزر الأيونية غرقت في البحر مثل التمساح ، وعندما سمع Rin-Pap غير المؤمن عن هذا بدأ يعمل على تكوين حلف أو تحالف لاسترداد مودون ، وبعث رسائل إلى كل حاكم أفرنجي كافر . عندئذ قدمت مجموعة غربية من القادة الإفرنج الذين يعاودون الظهور ، من وقت لآخر في الرواية التالية . وهذه المجموعة تتضمن ملوك فرنسا والمجر وبوهيميا وبولندا وكان ملك بولندا يسمى تسميتين تشيكي Czech ، وليش Lech ، وشخصيات أوروبية أخرى مثل كيزخان

وجيرول خان ، وهي إيزابيل التي أرسلت "بان" Ban خاص بها (وهذا مصطلح مجري ، يدل على الرئيس ، كان يطلقه الكتاب العثمانيون غالباً على الضابط ، الذي يحكم فرقة عسكرية إسبانية في الأسطول ، ودوزا Doza رئيس القضاء في البندقية ، وحكام الأندلس وقطالونيا Catalonia وفرسان رودس ، وحتى أمير موسكو إيفان الثالث<sup>(٤٦)</sup> . وفي أسلوب ملحمي حقيقي سمح لقادة الأعداء أيضاً أن يقولوا خطباً ويكتبوا خطابات ، وهذا ألقى ضوء مبالغاً إلى حد ما على ما يدرك الشاعر أنه من المعتقدات الإفرنجية ومبادئ الإفرنجية . ويتحدث هؤلاء بطبيعة الحال وينظرون إلى أنفسهم على أنهم كفار ، وهذه جملة مميزة تنسب إلى أمير سلافي .

"أنا عبد للمسيح ، أنا عبد لتمثال البندقية ، وأنا وثني وأكثر كفرة من ملك المجر"<sup>(٤٧)</sup> وأثناء القرن السادس عشر كانت الإمبراطورية العثمانية في أوج قوتها ومؤرخوها يعكسون ثقة المسلمين في سموهم ، الذي لا يقبل التحدي ، ونجاحهم الذي لا ينقطع ، و فقط الوزير الأعظم لطفي باشا الذي انقطع عن الدراسة وأمعن النظر ، وتدبر في ويلات الإمبراطورية بعد خلعها ، وحذر الحاكم من خطر مزدوج هو فساد الوطن وقيام البحرية الإفرنجية ، ومعظم المؤرخين الآخرين لم تزعجهم هذه الاهتمامات . فلو ذكر الإفرنجية على الإطلاق فهذا يتم باحتقار بمثل عبارات البرابرة الأعداء ، أو مثل دافعي الجزية . وفي القرنين المتأخرين السادس عشر والسابع عشر توجد علامات على ظهور التجار الإفرنج ، وحركة السفن ، وأحياناً توجد علامات على وصول سياسيين إفرنجية إلى اسطنبول .

ويسجل المؤرخ العثماني سيلانكي مصطفى أفندي ، وصول السفير الإنجليزي إلى اسطنبول في ١٥٩٣ ، ويدعى ادوارد بارتون في هذه الكلمات :

"حاكم دولة جزيرة إنجلترا التي تبعد ٣٧٠٠ ميل بحراً عن القرن الذهبي لإسطنبول ، وهناك امرأة تحكم منطقة موروثه وتبقى على دولتها وحكمها في أتم قوة ، وتدين بالديانة اللوثرية (نسبة إلى مارتن لوثر) . وتبعث برسائل تكريم ، وتبعث رسلاً وهدايا ومنحاً . وفي يوم كان هناك اجتماع المجلس ، وقد حضر السفير ، وتم تكريمه

وفقاً للقانون . وسفينة غربية مثل هذه لم تدخل ميناء اسطنبول . لقد عبرت ٣٧٠٠ ميلاً بحرياً ونقلت ٨٣ بندقية ، بالإضافة إلى أسلحة أخرى - وبصورة عامة كانت الاسلحة النارية على شكل خنزير وجدير بأن تسجل لأمرها العجيب<sup>(٤٨)</sup> .

وسفينة سيلانكي Selaniki الإنجليزية بينادقها الثلاثة والثمانين التي تأخذ شكل الخنازير ، تبدو خالية بعض الشيء ، ولكن على الأقل قد عرف أن هناك ملكة بروتستانتية في إنجلترا ، وكذلك هو أو معرفته قد لاحظت التسليح الثقيل للسفن التي شيدت لتبحر في الأطلنطي .

وأثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . يكرس المؤرخون العثمانيون اهتماماً ما بالعلاقات مع أوروبا رغم أن ذلك لم يكن على درجة كبيرة . وما زال يشار إلى الأمم الأوربية المختلفة بإشارات مثل "الكفار الإنجليز" ، "الكفار الفرنسيين" الخ ، على الرغم من أن اللغات المعتادة في التاريخ الجغرافي المبكر أصبحت أقل تكراراً أو أقل حدة .

وبصفة عامة مع ذلك عندما بدأ المؤرخون العثمانيون في الاهتمام أكثر بالشئون على حدودهم الأوروبية ، كان لديهم القليل الذي يقولونه عما يجري في أوروبا . وكان هناك اتساق مميز في ذلك ، يرجع من ناحية إلى أن المؤرخين العثمانيين اعتبروا رواية الأحداث السابقة والماضية نوعاً من التسجيلات الوثائقية الثابتة ، أكثر منها جملاً تخص أفراداً ؛ ولذلك . . فقد شعروا بالحرية في النسخ في نهاية الأمر .

وحتى عالم القرن السابع عشر جلبي . . الذي يظهر في كتاباته الجغرافية والتاريخية الأخرى بعض الاهتمامات بأوروبا تحول قليلاً جداً من عادة التاريخ العثماني العام . وفكرته تلك الخاصة بالوصول إلى تركيا من أخبار حرب الثلاثين عاماً ، فكرة مختصرة ومميزة ، وتبدو تقريباً حرفية (أو بالحرف) عند عدد من الكتاب الآخرين . ولقد كان هناك اهتمام بتاريخ الأحداث بالنسبة للمسلمين سنة ١٠٥٤ . وفي شهر شوال من هذا العام ، الموافق لشهر ديسمبر ١٦٤٤ ، كما يخبرنا جاءت تقارير إلى اسطنبول من المعروفين على حدود قلعة بودا تحمل القصة التالية : "كان الإمبراطور الروماني فرديناند

يود أن يخفض الناخبين السبعة ، المعروفين في تركيا بالملوك السبعة ، حتى يتفقوا مع تسمية ابنه باعتباره خليفة للقب الإمبراطوري أثناء حياته . وأحد هؤلاء السبعة مناضل الفرنسيين ، خطفه الإمبراطور باتفاق مع ملك إسبانيا وقتله ، فغضب الملك الفرنسي جداً ، وعقد اتفاقية مع السويد التي غزت الأراضي الألمانية واستولت على مدينة براج القديمة واستمرت الحرب حتى عام ١٠٥٧ (١٦٤٧) حتى عقد السلام . بعد ذلك اضطر النمساويون الذين كانوا قد ضعفوا جداً إلى التنازل عن الاسك Alasce لفرنسا وبوميرانيا سويد<sup>(٤٩)</sup> .

هذه الفكرة أخطأت تاريخ كل من دخول السويد إلى مدينة براج (حيث فشلوا صدقة في الاستيلاء على المدينة القديمة) وكذلك أخطأت تاريخ معاهدة ويستفاليا وهي تظهر جهلاً ملحوظاً بالأمور الأولى في الحرب ؛ حيث لم تتناول مركباتها الدينية والسياسية . وفي فقرة أخرى تحت عنوان "حرب الفرنسيين والسويد ضد الكفار النمساويين" يعطي كاتب جلبي فكرة تفصيلية أكثر قليلاً ، يقول بإنها حدثت بين أحداث ١٠٤٠ (١٦٣٠/١٦٣١) . وأن الملك الفرنسي لويس الثالث عشر يريد أن يصبح إمبراطوراً ، والإمبراطور يعين بسبعة ملوك يدعون الناخبين ، كل واحد منهم له أرضه الخاصة به ، ويقال إن الملك لويس نجح في الانتصار على اثنين منهم .

وكان الإمبراطور آنذاك هو أبو الإمبراطور الحالي فرديناند (فرديناند الثالث الذي مات ١٦٥٧) ورتب لأن يلقب ابنه باعتباره الخليفة له مدى الحياة . ولم ينل ذلك اللقب استحسان الناخبين حيث قالوا بأن ذلك لا يبدو مناسباً ، وأنه ضد القانون ، وشن الملك الفرنسي حرباً اعتراضاً على ذلك ، وتحالف مع الملك السويدي قائلاً بأن مثل هذا اللقب مدى حياة الإمبراطور أمر ضد قوانين الكفار .

وفيليب الرابع (١٦٦٥) "الذي كان ما يزال ملكاً على إسبانيا . . كان خال ملك فرنسا وكان هناك سلام بينهما ، ولكن ملوك إسبانيا مثل Nemce كانوا من دوستوريا ، ولذلك فقد انضم إلى جانب الإمبراطور "وبعد ذلك تأتي فكرة مختصرة عن حرب الثلاثين عاماً حتى السلام النهائي في ويستفاليا"<sup>(٥٠)</sup> .

ويقدم كاتب جلبي تقارير عديدة أخرى عن الشؤون الفرنسية . وخلال عام ١٠١٨

يلاحظ أن بعثة جاءت من عند الملك الفرنسي هنري للاستفسار عن تجديد الامتيازات<sup>(٥١)</sup> . وقد أشار السفير الفرنسي فرنسكو سافاري إلى الصداقة التي وجدت بين الحكام الفرنسيين والعثمانيين الأوائل إلى الامتيازات التي كانت تمنح في زمن السلطان محمد الفاتح (المتصر) . ويقول كاتب جلبي أن آخرين بجانب الفرنسيين تسلموا هذه الامتيازات ؛ فعدّ أهل البندقية الإنجليز أهل جنوة والبرتغاليين وتجار كاتلا وصقلية وانكونا وإسبانيا وفلورنسا وقد دخل عديد من هؤلاء تحت العلم الفرنسي وباسم الملك الفرنسي . ونوقشت مسائل أخرى على يد السفير ، كما يقول تضمنت إمكان الحج إلى القدس ، ونشاطات البرابرة ، والتعاون العسكري القديم .

ودعا وصول بعثة البندقية في يناير ١٦٥٣ لاستغلال السلام بمساعدة السفير الإنجليزي المؤرخ العثماني إلى تعليق شخص نادر . إنه يقول إن سفير البندقية (أو الفينيقي نسبة إلى فينيسيا) " كان كافراً عمره تسعين عاماً برأس وأيدي ترتعش ، ولكنه كان سفيراً مأكراً"<sup>(٥٢)</sup> . ولا يبدو أن البندقيين كانوا يستخدمون نفس السياسة ، وربما كان ذلك أمراً خاصاً به لسنه المتقدمة .

هناك استثناء عن المؤرخين العثمانيين في القرن السابع عشر ، وهو إبراهيم رسفي ، غطى تاريخه الأعوام بين ١٥٢٠ - ١٦٣٩ . وقد ولد في ١٥٧٤ في مدينة Pecs المجرية حيث لقب بلقب المدينة . وبالنسبة لأبيه . . فقد جاء من أسرة تركية كانت تخدم السلاطين لأجيال ، تنتمي أمه إلى سوكلوا وهكذا كانت تتمتع بأصل إسلامي . وفيما عدا بعض المهمات التي قام بها في الأناضول ، فإنه يبدو كما لو كان قد قضى معظم حياته في المجر ، ومولده وتربيته في الولايات على الحدود الأوروبية أعطياه قدرأ من المعرفة ، وكذلك من الاهتمام الذي كان نادراً بين المؤرخين العثمانيين . ولم يكن برسفي Percevi معيناً بالتاريخ العام أو الجغرافيا العامة وكان ما يزال معيناً قليلاً بكتابة أو ترجمة تواريخ الملوك الكفار . وكانت أولى اهتماماته مثل معظم العثمانيين ، ومعظم المؤرخين الغربيين هي اهتماماته بتاريخ الإمبراطورية ، التي كان هو أحد رعاياها ؛ خاصة بحروب هذه الإمبراطورية ضد خصومها في أوروبا .

وبالنسبة للفترة المبكرة . . لذلك يبدو أنه قد اتبع التقاليد العامة لاسلافه من المؤرخين ، وبالنسبة للفترة المتأخرة . . فقد اعتمد بطريقة أساسية على الدليل أو البرهان ، الذي لم يتناوله أحد ، وهو عبارة عن تجاربه وخبراته الخاصة وتقارير الجنود القدامى ، ولكن إلى جانب هذه المصادر العادية المعروفة . كانت لدى رسفي فكرة متجددة هي استشارة مؤرخي الأعداء . وفوق ذلك كان مهتماً بالتاريخ العسكري ومركزاً بصدق على التفاصيل الخاصة بالمعارك الكبيرة التي قامت في سهول المجر . ولكن العثمانيين تنقصهم التفاصيل أحياناً ، وكذلك كان رسفي على جانب آخر من ذلك فيقول : " في بلادنا يوجد مجريون بعدد كبير قادر على القراءة والكتابة (هو يستخدم الكلمة المجرية Deak ، وتعني أن الفرد يمكنه أن يقرأ اللاتينية) <sup>(٥٣)</sup> ، وكان هناك بلاشك عدد من المجرين في الإمبراطورية ، سواء أكانوا أسرى أم معتنقين للإسلام يكفون غرض رسفي ، ويبدو أنه اتصل بالمؤرخين المجرين الذين كتبوا باللاتينية ، وقرأ لهم وترجم لهم إلى التركية . وضمن منها عدداً من الفقرات في تاريخه الخاص ، وبينها أفكار عن معركة Mohacs العظيمة ووقائع أخرى في الحروب المجرية . وعلى الرغم من أنه لم يعدد مصادره ، فإن اثنين من هذه المصادر تحقق منهما العلماء المحدثون <sup>(٥٤)</sup> . ويبدو أن رسفي كان أول مؤرخ عثماني ، يقارن أفكار الأعداء عن المعركة بأفكار جانيه ليؤلف بينهما في رواية واحدة . وفي مثل هذا الأمر سبقه القليل في أماكن ما ، وبالتأكيد أصبح له قليل من الخلفاء لفترة طويلة .

وتاريخ رسفي يتضمن إشارات أخرى عديدة للأحداث في أوروبا ؛ خاصة تلك الأحداث ذات الاهتمام العثماني الإسلامي ، وهو يتحدث باختصار عن الارتباط الفرنسي والتركي في العمليات البحرية في البحر المتوسط ضد البندقية وحلفائها . ومن وقت لآخر يتحول عن الشؤون السياسية والعسكرية ، التي تمثل جل اهتمام المؤرخين ؛ فتارة يصف مقدم التسبغ إلى تركيا من التجار الإنجليز ، وتارة يعطي موجزاً عن اختراع كل من الطباعة والبارود في أوروبا <sup>(٥٥)</sup> .

وربما أكثر مميزة في تواريخ الإمبراطورية العثمانية هي مجموعة "تاريخ نايم" . وهي تغطي الفترة من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ١٠٧٠ من التاريخ الإسلامي الموافق من سنة

١٥٩٠ إلى سنة ١٦٦٠ ، ونايما الذي طبع تاريخه بالإضافة إلى أنه أجاد كتابته كان واحداً من أعظم المؤرخين العثمانيين ، وعلى عكس عدد كبير من زملائه الذين كانوا يؤرخون بوصفهم مجرد مؤرخين للأحداث . . كان نايما يتمتع بتصوير فلسفي لطبيعة التاريخ ، وكان فكره عميقاً في التاريخ .

وأحد مقالاته الكبرى في التاريخ كانت الحرب في أوروبا ، في كل من شبه جزيرة البلقان ومنطقة البحر الأسود . وأفكاره حول هذه الصراعات مفصلة تماماً ، وكذلك بالنسبة إلى القراء الأوروبيين المحليين في المجر وترانسلفانيا ، الذين دخلوا ضمن هذه الحروب ، وظل امبراطورها أيسبرج غامضاً وغير واضح المعالم ، وكانت صورته عادة بغير اسم ، بينما يظهر ملوك وممالك الغرب بأسمائهم . وبين أحداث حرب الأعوام الثلاثين في ألمانيا . . يوجد حدث مركزي في الفترة التي يغطيها أكبر ، لا بد أنه كان يمثل أهمية مباشرة للعثمانيين ، ولا يقدم نايما أكثر من نقل للتواريخ السابقة عليه ، وينسخ بطريقة مهملة جداً لدرجة أنه يشير إلى الملك الإسباني فيليب الرابع على أنه " ما زال ملكاً على إسبانيا في ذلك الوقت " بعد مرور مائة عام على رحيله . ومن العجيب أنه أيضاً أقل اهتماماً بالأحداث والوقائع البعيدة مثل أفعال ونشاطات لويس الرابع عشر في فرنسا ومثل الحرب الأهلية ، ونظام الثروة المشتركة في إنجلترا .

ومع ذلك . . ففي جانب واحد يضع نايما دليلاً على تخليه الطريف عن الأمور العادية في التاريخ الجغرافي العثماني ، وذلك في اهتمامه بتاريخ الماضي البعيد والأحداث الجارية ، ولم يكن ذلك تماماً دون سابقة في التاريخ الجغرافي العثماني . ويصف مؤرخ القرن السادس عشر كمال بايزيد كيف أن السلطان سليمان العظيم خرج في سنة ١٥٢١ يشن حرباً ضد الإمبراطور ، ويقدم نوعاً من الثأر لغزو آسيا على يد الصليبيين الألمان في العصور الوسطى ، ونايما الذي يكتب في القرن الثامن عشر المبكر ، وعندما اهتزت الإمبراطورية العثمانية بهزائمها في أراضي النمسا وروسيا ، حاول أن يجد راحة في قصة النجاحات الأولى والهزيمة الأخيرة للصليبيين قبل ذلك بقرون .

"بعد ستة قرون من العصر الإسلامي (تاريخ نايمًا خطأ بشكل طفيف) لأنه ليس هناك أي اتفاق أو اتفاقية بين ملوك الإسلام .. ظهر نزاع وخلاف ، وبينما كانوا مشغولين بمحاربة كل الآخر .. فإن الكفار الفرنسيين والملوك الآخرين الكفار اللامحدودة من الجنود المرسلين من النمسا (محاولة جاء هو بشكل غامض لربط الصليبيين بالحروب النمساوية الجارية) جاءوا بأسطول عظيم إلى شواطئ البحر المتوسط واحتلوها .

ويستمر نايمًا في وصف كيف كان الإفرنج المتصرون ، قادرين في البداية على إقامة أنفسهم عبر السواحل السورية والفلسطينية ، وكذلك ليهددوا دمشق ومصر ، وقد انتهى هذا الخطر على يد صلاح الدين الذي حاصرهم ، حتى طردوا في نهاية الأمر على يد خلفائه وطهرت الأراضي التي احتلونها من دنسهم " .

ويبدو أن نايمًا قد وجد دليلاً في ذلك للعثمانيين في عصره . وجد سلاطين العصور الوسطى في مصر وأنه من الضروري أن يعقدوا مصالحات (أو تسويات) ، وكان أحدهم ينبغي توقيع معاهدة تخلي عن القدس الإفرنج . ويبدو أن هذا المغزى هو أن العثمانيين أيضاً لما كانوا يقاسون من مجموعة هزائم .. كان لابد أن يعدوا أنفسهم لنشر الإسلام ، حتى إذا جاء ذلك في عبارات ليس من مصلحتهم ؛ لكي ينقذوا ما يمكن إنقاذه من حطام ، ويجهزوا أنفسهم لعودة نهائية <sup>(٥٧)</sup> .

وفي موضع آخر ازداد نايمًا وضوحاً : "لقد كتب هذا لغرض بيان ، كيف يكون من المهم عقد هدنات مع الملوك الكفار ، وفي واقع الأمر عقد سلام مع المسيحيين في كل الأرض حتى يمكن أن توضع الأراضي العثمانية في نظام ويأخذ السكان هدنة ومهلة

(٥٧) .

وخليفة نايمًا كمؤرخ جغرافي للسلطة ، راشد أفندي يبدأ حيث ينتهي نايمًا في سنة ١٠٧٠ الموافقة لسنة ١٦٦٠ ويستمر إلى ١٧٢٠ . وهكذا فإن تأريخه يغطي مجموعة من الأحداث العظيمة في العلاقات العثمانية بأوروبا . والحصار الناجح الثاني لفيينا

والانسحاب الذي تبع ذلك ومعاهدة كارلوتز سنة ١٦٩٩ والحرب مع بيتر الأعظم في روسيا سنة ١٧١٠ - سنة ١٧١١ ، ومع البندقية والنمسا في سنة ١٧١٤ - سنة ١٧١٨ والعلاقات الغامضة المركبة مع الملك شارل الثاني عشر ملك السويد بما في ذلك إقامته في تركيا ضيفاً ثقيلاً على السلطان . ولا عجب في أن راشد يولي اهتماماً أكبر من أسلافه بالعلاقات السياسية (الدبلوماسية) بما في ذلك مفاوضات السلام مع الخصوم الحاليين للعثمانيين وروسيا والنمسا والبندقية ، وكان عنده قليل يقوله عن بعض البلاد البعيدة عن أوروبا . وكذلك فإن راشد هو أول من قدم تقريراً عن رحيلهم وعدتهم . ويقدم راشد ممارسة جديدة في كتاباته التاريخية من التقارير التي يبعثونها ، والذين يشغلون مناصب السفراء يقدمونها بعد عودتهم إلى اسطنبول ، رغم تزايد الاهتمام بالعلاقات الدبلوماسية مع أوروبا فقد ظل لا يأبه تماماً بالشئون الداخلية للبلاد الأوروبية ، وشأن أسلافه . . يمر مر الكرام على الأحداث الكبرى في التاريخ الأوروبي في تلك الفترة .

ويمكن أن يقال نفس الكلام عن معظم معاصريه الذين غطوا العقود الوسطى من القرن الثامن عشر ، رغم أن المرء يلاحظ تزايداً طفيفاً في المساحة التي خصصت للعلاقات الدبلوماسية مع أوروبا ودرج التفاصيل عن الحكام الأوروبيين . وكذلك هناك بداية للاهتمام بشئون أوروبا . يقدم المؤرخ العثماني السلحدار نقلاً تركيا لمعاهدة ريسوك سنة ١٦٩٧<sup>(٥٨)</sup> . ويغني المؤرخون العثمانيون أو كثير منهم أن يكرس صفحة أو اثنتين للخلافة النمساوية ولتعديد المناطق الداخلة ضمن هذا واهتماماتها .

فيما عدا الأفكار المختصرة جداً عن حرب الثلاثين سنة ، فإن هذا هو النضال الأوروبي لأول الذي يلقي هذا الاهتمام من المؤرخين والجغرافيين العثمانيين ، وهناك مؤرخ آخر من هذا الوقت سمدانيزاد سليمان أفندي Semdaniade Suliyman Efendi يفسر النظام الانتخابي للإمبراطورية الرومانية المقدسة بهذه الكلمات العثمانية : "منطقة Nemce تتكون من ممالك تسع ، ثلاث منها هي Sanjaks of Maizn و Trier في إيليت Eyalet في الراين Raine ، وهؤلاء هم أول ثلاثة من الناخبين ويحملون خاتم الكهانة " والمملكة الرابعة ثم التابعة czechEyalets of وبافاريا Bavaria ، وساكسون

Saxony وبروسيا San jak Eyalet, Prussia وهانوفر Hanover . وبالإضافة إلى هذه الولايات التسع Sanjak سانجبال ، سافوي Savoy ، عندئذ في ظل حكم ملك ساردينيا ، ولديه ملاحظات قليلة عن هاتين الولايتين الأولى سانجبال وهي مقاطعة مستقلة ، والثانية إيليت سوابيا Swabia Eyalet of وهي جمهورية مستقلة أيضاً .

وهو يشير إلى أن حاكم إيليت بروسيا Eyalet of Prussia شخص عظيم يطلق عليه اسم العظمة Grandebur وهو أيضاً اسم لقلعة في هذه الولاية ، أما لقب هذا الحاكم فهو فريدوريكو Fredoricus . وعن هانوفر Hanover يشير سيمدانيزيد<sup>(٥٩)</sup> أيضاً ملاحظات مختصرة عن الأحداث الأخرى في أوروبا ، ولما كان مهتماً أساساً بالنمسا وروسيا . . فقد ذكر تلميحاً مناسباً عن الدول الأبعد والأكثر غموضاً مثل فرنسا والمجترات وهولندا والسويد ، ورغم أنه كان يعرف الخلافات والنزاعات بينهما . . فقد اتجه إلى افتراض عداة عام للدولة الإسلامية ، وهكذا في الأزمة مع روسيا ١٧٣٦ عندما خاف السفراء الإنجليز والهولنديون الانحدار والانهايار العثماني ؛ فقد كان من الواضح أنهم يحرضون على المؤامرات والتدابير الروسية<sup>(٦٠)</sup> .

ويمكن أن نلاحظ تغييراً آخر في تاريخ Vasif الذي يغطي الفترة من ١١٦٦ / إلى ١١٨٨ / ١٧٧٤ ، يتعلق بفترة الخطر الذي كان يهدق بالإمبراطورية العثمانية مركزاً على المعاهدة الكارثة "كوكوك كاينارجا" Kiucuk kaynarja التي فرضتها على الأتراك روسيا المنتصرة . وواصف نفسه عاش في الفترة النابليونية الثرية وفترة الحروب النابليونية (نسبة إلى نابليون) وكان شاهداً على أحداث عظيمة مثل غزو فرنسا واحتلالها مصر ، ذلك الغزو الذي كتب عنه كتاباً مستقلاً . في هذا التأريخ يكتب واصف تقريراً عن البعثات العثمانية إلى فيينا وبرلين ، ويقتبس كثيراً من أفكارهم عن سياسات أوروبا الوسطى .

وفي القرن الثامن عشر المبكر عندما كانت الامبراطورية العثمانية متورطة في شئون أوروبا فإن الاهتمام الذي أعطاه المؤرخون لهذه الشئون ما يزال اهتماماً ضئيلاً بشكل ملحوظ ، وفيما عدا الحروب الفعلية التي وصفت بطريقة تفصيلية نوعاً ما فقد اهتم

المؤرخون قليلاً بعلاقات العثمانيين مع روسيا والنمسا والغرب ، أكثر من اهتمامهم بفارس ، وبأخبار الولايات التي تتعلق بالأحداث المختلفة والتزاعات ، نزاعات الباشاوات ومشاهير الإمبراطورية . وكان الاهتمام بالشئون الخارجية أكبر قليلاً من ذي قبل ، ولكنه ما يزال محدوداً ، ويبدو أن المعرفة التي استخدمها مختلف المؤرخين العثمانيين آتية من نفس القدر القليل من المعارف ، وعن طريق الأجانب ومعتنقي الإسلام حديثاً وغير المسلمين داخل الإمبراطورية . ولقد عرف القرن الثامن عشر العثماني كثيراً عن البلاد والقوميات الأوروبية ، مثلما عرف القرن التاسع عشر عن قبائل وشعوب أفريقيا ، ونظروا إليهم بنفس الاحتقار ، ويبدأ الإحساس المتزايد بالخطر بإدخال تعديل على هذه النظرة ، إن كان هذا التعديل بطيئاً وتدرجياً .

ومع نهاية القرن الثامن عشر . . لم تهتم الأفكار العثمانية عن أوروبا بأي شيء جوهرى جداً ، ومع ذلك فإنها تمثل تقدماً ملحوظاً ومعتدلاً عما كان يجري من قبل ، وكانت ما تزال في تناقض ملحوظ مع النقص الكلي في مثل هذا الأدب في اللغة الفارسية ، أو مع استثناء تقارير السفارة المغربية القليلة في اللغة العربية .

والموقف الجديد في القرن الثامن عشر - وهو معرفة الهزيمة والعلم بالخطر - أدخل تعديلاً في طبيعة الاهتمام العثماني أوروبا . وإنه الآن يتعلق في المقام الأول بالدفاع . ولكن الحدود الفاصلة بين الحضارتين حدث أن خرقت ؛ فلم يعد من الممكن الاحتفاظ بسيطرة دقيقة على المرور من الحدود . وقد أدى الاهتمام بالعلوم العسكرية من ناحية ، والحاجة إلى معرفة سياسية وعسكرية من ناحية أخرى ، إلى اهتمام بالتاريخ الأوروبي الحديث ، الذي على الرغم من أنه كان في البداية عابراً ومتقطعاً ؛ فقد أصبح أكثر ضرورة وأهمية حيث بدأ الأتراك تدريجياً في إدراك أن حياة إمبراطوريتهم تعتمد على فهم وثيق لما كان يحدث في أوروبا . وتتضمن الكتب التي طبعت في المطابع التركية الأولى التي أنشأت في سنة ١٧٢٩ ، وأغلقت في سنة ١٧٤٢ اهتماماً بالتاريخ والجغرافية . وبين هذه الكتابات ، فكرة السفير محمد سعيد أفندي عن سفارته لدى فرنسا ، ومقالة في علم التكنيك الذي كان يطبق في الجيوش الأوروبية ، كتبها مؤسس

المطبعة إبراهيم موتيفريكا ، وترجمة للروايات الأوروبية عن الحروب في بلاد فارس . كذلك نشر إبراهيم بعض الأعمال القديمة ، التي تتضمن تاريخ القرن السادس عشر الخاص باكتشاف العالم الجديد ، وجزءاً من الكتابات الجغرافية الخاصة بكتاب جليبي .

وبالإضافة إلى هذه الكتب التي طبعت في مطبعة موتيفريكا . . فقد حفظت بعض المخطوطات في مجموعات إسطنبول ، وتدل على ظهور اهتمام جديد بالتاريخ الأوروبي ، ومخطوطة يرجع تاريخها إلى ١٧٢٢ تقدم تاريخاً خاصاً عن النمسا من ٨٠٠ إلى سنة ١٦٦٢ ، وقد ترجمت من اللغة الألمانية على يد المترجم عثمان أنما من تيمسفار Temesvar ، وتعلق بشكل مباشر بالشئون الجارية ، ومخطوطتان كتبتا في ١٧٢٥ تعطيان معرفة لم يتناولها أحد - فهي جديدة بحق - عن أوروبا المعاصرة . وإحدى هاتين المخطوطتين قصيرة ، ولا تحمل أسماء تتعرض للشئون في أوروبا ، وهي باقية في تركيا في أربعة نقوش على الأقل ، وتوجد بها درجة من العناية أنها تبدأ بتحديد وتعريف المراتب العلمانية والدينية ، وتتكون بصفة أساسية من نوع من الرومانية المقدسة ، وتتبعها دول إيطاليا ( البندقية وجنوة وغيرها ) ثم سويسرا وإسبانيا والبرتغال ومالطة "مناطق الإنجليز" وهولندا والدانمارك والسويد وبولندا وروسيا . وكان المؤلف ضعيف المعرفة بالإنجلترا فهو يسمى الحاكم ويليام الثاني (ويليام الثالث الذي مات في سنة ١٧٠٢ قبل أن يكتب هذا النص بالتأكيد) ، وعلى الرغم من أنه نص مكتوب بعناية ، ويعدد أسماء أماكن أجنبية . . فقد شوه معظم هؤلاء فسي بريطانيا . وكاتبه عارف جيداً بشئون القارة ، عندما يلاحظ على سبيل المثال أن Archibishop من كولونيا كان ابناً لدوق بافاريا ، وأن ميكلنبرج Mecklenburg دخلت مؤخراً تحت الاحتلال الروسي (حقيقة في ١٧١٦) ، وأن القيصر (بيتر ، بطرس الأعظم الذي مات ١٧٢٥) قد استولى على معظم الأراضي البلطيق من السويد (بمعاهدة ١٧٢١) ، وتعبيرات أخرى مماثلة .

ويبقى النص الآخر أيضاً في مخطوطات متعددة ، ويتعلق بجريان العالم ، وفقاً للمحوظة في المخطوطات جاءت على هذا النحو " راهب متعلم جاء مؤخراً من تولوزي

Toulouse في فرنسا واعتنق الإسلام في حضرة الوزير الأعظم . ولما كان قد قام برحلات متعددة ، وقد عرف تماماً شئون العالم فإن هذه المقالة مأخوذة من شهادته<sup>(١١)</sup> .

من الواضح أن المقالتين كتبهما مؤلف واحد ، ربما الناشر الذي أعد المعرفة على الأمور البحرية التي تم الحصول عليها من الفرنسيين ، الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً . وتشير الصورة الهجائية التي جاءت عليها الأسماء الغريبة إلى أن صاحب هذه المسألة ربما من أصل مجري ، وربما لا يكون غير إبراهيم موتيفريكا<sup>(١٢)</sup> .

وتقرير آخر يرجع تاريخه إلى ١٧٣٣ - ١٧٣٤ يتعلق "ببعض الأحوال التاريخية لدول أوروبا" وصفة كلاود ألكسندر من بونيفال ، ثم أحمد باشا ، وهو نبيل فرنسي التحق بالخدمة العثمانية ، واعتنق الدين الإسلامي .

ويتعلق هذا التقرير الأخير بالأحداث في النمسا والمجر وإسبانيا وفرنسا ، وقد ترجم إلى اللغة التركية ربما عن المؤلف الفرنسي الأصل . وضمن المؤرخ عبد الرحمن مونياف أفندي (١٧٤٢) في عرض شامل وعام للممالك الكبرى ليس فقط حكام الإسلام ، ولكن أيضاً الأباطرة الرومان الوثنيين والمسيحيين ، والأباطرة البيزنطيين وملوك فرنسا وملوك النمسا . مخطوطة من القرن الثامن عشر المتأخر بعنوان "عرض للشئون الأوروبية" بروسيا في ظل حكم فريدريك ويليام الثاني ، وفرنسا في ظل الحكومات الثورية ، وفي سنة ١٧٩٩ أعد مسيحي من اسطنبول يدعى كوسمو كوميداس Cosmo comidas قائمة باللغة التركية عن الحكام الأوروبيين بتواريخهم الميلادية ، وتواريخ توليهم العرش ، وعواصمهم وألقابهم وورثتهم ومعلومات مفيدة أخرى .

وفي الدول العربية التي كان معظمها تحت السيطرة العثمانية أو الهيمنة العثمانية كان الاهتمام بالغرب معدوماً ، فيما عدا اهتمام محدود بين الأقليات المسيحية . وفي مراكش أرسلت بعض التقارير من السفراء إلى عواصم أوروبية مختلفة ، تمد ببعض المعلومات والمعرفة الأساسية بالأحوال السياسية الداخلية ، وفيما يتعلق بالاهتمام

التاريخي . . لم يكن هناك أحد حتى القرن التاسع عشر . وفي الشرق العربي الذي يسيطر عليه العثمانيون . . فإن الهجوم الفرنسي والإنجليزي فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أيقظ نوعاً ما بعض الاهتمام بالشعوب الأخرى . ولكن الأفكار التي كتبت في ذلك الوقت قليلة العدد ، وتهتم أساساً بـمناشط الإفرنجية في الشرق ، وليس بالأحداث الوطنية التي دعتهم للذهاب هناك . ولا نجد قبل ١٨٢٠ أية ترجمات في مصر للكتب الغربية الآتية من المطبعة التي أنشئت في القاهرة على يد الحاكم محمد علي باشا ، وفي الدول العربية الأخرى ، وفي إيران . . جاءت اليقظة الإسلامية والاهتمام بالغرب متأخراً إلى حد كبير ، في شكل ترجمات ، وكان هذا الاهتمام نتيجة لسيطرة الوجود الأوروبي .